سلسلة نصوص تراثية للباحثين

(٧٦٦)

الاحتباك

من تفسير التحرير والتنوير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

١-"بشير ولا نذير﴾ [المائدة: ١٩] وهو أسلوب في كلام العرب. وقال السيد في حواشي الكشاف لئلا يتوهم أن المنفي هو المجموع فيجوز ثبوت أحدهما، ولما كانت غير في معنى النفي أجريت إعادة النفي في المعطوف عليها، وليست زيادة "لا" هنا كزيادتها في نحو ﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ [لأعراف: ١٢] كما توهمه بعض المفسرين؛ لأن تلك الزيادة لفظية ومعنوية لأن المعنى على الإثبات والتي هنا زيادة لفظية فحسب والمعنى على النفي.

والضلال سلوك غير الطريق المراد عن خطأ سواء علم بذلك فهو يتطلب الطريق أم لم يعلم، ومنه ضالة الإبل، وهو مقابل الهدى وإطلاق الضال على المخطئ في الدين أو العلم استعارة كما هنا. والضلال في لسان الشرع مقابل الاهتداء والاهتداء هو الإيمان الكامل والضلال ما دون ذلك، قالوا وله عرض عريض أدناه ترك السنن وأقصاه الكفر. وقد فسرنا الهداية فيما تقدم أنها الدلالة بلطف، فالضلال عدم ذلك، ويطلق على أقصى أنواعه الختم والطبع والأكنة.

والمراد من المغضوب عليهم والضالين جنسا فرق الكفر، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد وعن تأويل بعيد جدا تحمل عليه غلبة الهوى، فهؤلاء سلكوا من الصراط الذي خط لهم مسالك غير مستقيمة فاستحقوا الغضب لأنهم أخطأوا عن غير معذرة إذ ما حملهم على الخطأ إلا إيثار حظوظ الدنيا.

والضالون جنس للفرق الذين حرفوا الديانات الحق عن عمد وعن سوء فهم وكلا الفريقين مذموم معاقب لأن الخلق مأمورون بإتباع سبيل الحق وبذل الجهد إلى إصابته. والحذر من مخالفة مقاصده.

وإذ قد تقدم ذكر المغضوب عليهم وعلم أن الغضب عليهم لأنهم حادوا عن الصراط الذي هدوا إليه فحرموا أنفسهم من الوصول به إلى مرضاة الله تعالى، وأن الضالين قد ضلوا الصراط، فحصل شبه **الاحتباك** وهو أن كلا الفريقين نال حظا من الوصفين إلا أن تعليق كل وصف على الفريق الذي علق عليه يرشد إلى أن الموصوفين بالضالين هم دون المغضوب عليهم في الضلال فالمراد المغضوب عليهم غضبا شديدا لأن ضلالهم شنيع. فاليهود مثل للفريق الأول والنصارى من جملة الفريق الثاني كما ورد به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في جامع الترمذي وحسنه. وما ورد في الأثر من تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، فهو من قبيل التمثيل بأشهر الفرق التي حق عليها هذان". (١)

٢-"يعملون﴾

عقبت الآيات المتقدمة من قوله: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه﴾ [البقرة: ١٢٤] بهذه الآية لأن تلك الآيات تضمنت الثناء على إبراهيم وبنيه والتنويه بشأنهم والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم وكأن ذلك قد ينتحل منه المغرورون عذرا لأنفسهم فيقولون نحن وإن قصرنا فأن لنا من فضل آبائنا مسلكا لنجاتنا، فذكرت هذه الآية لإفادة أن الجزاء بالأعمال لا بالاتكال.

والإشارة بتلك عائدة إلى إبراهيم وبنيه باعتبار أنهم جماعة وباعتبار الإخبار عنهم باسم مؤنث لفظه وهو أمة.

والأمة تقدم بيانها آنفا عند قوله تعالى: ﴿ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ [البقرة: ١٢٨]

---

(١) التحرير والتنوير ١/١٩٦

وقوله ﴿قد خلت﴾ صفة لأمة ومعنى خلت مضت، وأصل الخلاء الفراغ فأصل معنى خلت خلا منها المكان فأسند الخلو إلى أصحاب المكان على طريقة المجاز العقلي لنكتة المبالغة، والخبر هنا كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة وإلا فإن كونها خلت مما لا يحتاج إلى الإخبار به، ولذا فقوله: ﴿لها ما كسبت﴾ الآية بدل من جملة قد خلت بدل مفصل من مجمل.

والخطاب موجه إلى اليهود أي لا ينفعكم صلاح آبائكم إذا كنتم غير متبعين طريقتهم، فقوله: ﴿لها ما كسبت﴾ تمهيد لقوله: ﴿ولكم ما كسبتم﴾ إذ هو المقصود من الكلام، والمراد بما كسبت وبما كسبتم ثواب الأعمال بدليل التعبير فيه بلها ولكم، ولك أن تجعل الكلام من نوع **الاحتباك** والتقرير لها ما كسبت وعليكم ما كسبتم أي إثمه.

ومن هذه الآية ونظائرها انتزع الأشعري التعبير عن فعل العبد بالكسب.

وتقديم المسندين على المسند إليهما في: ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ لقصر المسند إليه على المسند أي ما كسبت الأمة لا يتجاوزها إلى غيرها وما كسبتم لا يتجاوزكم، وهو قصر إضافي لقلب اعتقاد المخاطبين فإنهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم.

وقوله: ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ معطوف على قوله: ﴿لها ما كسبت﴾ وهو من تمام التفصيل لمعنى خلت، فإن جعلت ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ خاصا بالأعمال الصالحة فقوله: ﴿ولا تسألون﴾ إلخ تكميل للأقسام أي وعلى كل ما عمل من". (١)

٣-"ومعلوم أن كراهية الطبع لا تنافي تلقي التكليف به برضا لأن أكثر التكليف لا يخلو عن مشقة.

ثم إن كانت الآية خبرا عن تشريع مضي، يحتمل أن تكون جملة: ﴿وهو كره﴾ حكاية لحالة مضت وتلك في أيام قلة المسلمين فكان إيجاب القتال ثقيلا عليهم، وقد كان من أحكامه أن يثبت الواحد منهم لعشرة من المشركين أعدائهم، وذلك من موجبات كراهيتهم القتال، وعليه فليس يلزم أن تكون تلك الكراهية باقية إلى وقت نزول هذه الآية، فيحتمل أن يكون نزلت في شأن صلح الحديبية وقد كانوا كرهوا الصلح واستحبوا القتال، لأنهم يومئذ جيش كثير فيكون تذكيرا لهم بأن الله أعلم بمصالحهم، فقد أوجب عليهم القتال حين كانوا يكرهونه وأوجب عليهم الصلح فيوقت أحبوا فيه القتال، فحذف ذلك لقرينة المقام، والمقصود الإفضاء إلى قوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ لتطمئن أنفسهم بأن الصلح الذي كرهوه هو خير لهم، كما تقدم في حوار عمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر، ويكون في الآية **احتباك**، إذ الكلام على القتال، فتقدير السياق كتب عليكم القتال وهو كره لكم ومنعتم منه وهو حب لكم، وعسى أن تكرهوا القتال وهو خير لكم وعسى أن تحبوه وهو شر لكم، وإن كانت الآية إنشاء تشريع فالكراهية موجودة حين نزول الآية فلا تكون واردة في شأن صلح الحديبية، وأول الوجهين أظهرهما عندي ليناسب قوله عقبة: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ [البقرة:٢١٧].

---

(١) التحرير والتنوير ١/٧١٥

وقوله: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ تذييل احتيج إليه لدفع الاستغراب الناشئ عن قوله: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ ، لأنه إذا كان مكروها فكان شأن رحمة الله بخلقه ألا يكتبه عليهم فذيل بهذا لدفع ذلك.
وجملة: ﴿وعسى﴾: معطوفة على جملة: ﴿كتب عليكم القتال﴾ وجملة: ﴿وهو خير لكم﴾: حالية من ﴿شيئا﴾ على الصحيح من مجيء الحال من النكرة، وهذا الكلام تلطف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين، وإن كان سبحانه غنيا عن البيان والتعليل، لأنه يأمر فيطاع. ولكن في بيان الحكمة تخفيفا من مشقة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقي الشريعة معللة مذللة فأشار إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملاءمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئا وفيه نفعه وقد يحب شيئا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات، فإن الشيء قد يكون لذيذا ملائما ولكن ارتكابه يفضي إلى الهلاك، وقد يكون كريها منافرا وفي ارتكابه صلاح. وشأن جمهور الناس الغفلة عن". (١)

٤-"بتلك المناسبة، ولما اختم حكم الطلاق بقوله: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك﴾ صار أولئك النساء المطلقات زوجات، فعاد الضمير إليهن باعتبار هذا الوصف الجديد، الذي هو الوصف المبتدأ به في الحكم، فكان في الآية ضرب من رد العجز على الصدر، فعادت إلى أحكام الزوجات، بأسلوب عجيب: والمناسبة أن في الإيلاء من النساء تطاولا عليهن، وتظاهرا بما جعل الله للزوج من حق التصرف في العصمة، فناسب أن يذكروا بأن للنساء من الحق مثل ما للرجال.
وفي الآية **احتباك**، فالتقدير: ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول لدلالة الآخر، وبالعكس.
وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء؛ لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها. وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية.
وتقديم الظرف للاهتمام بالخبر؛ لأنه من الأخبار التي لا يتوقعها السامعون، فقدم ليصغي السامعون إلى المسند إليه، بخلاف ما لو أخر فقيل ومثل الذي عليهن لهن بالمعروف وفي هذا إعلان لحقوق النساء، وإصداع بها وإشادة بذكرها، ومثل ذلك من شأنه أن يتلقى بالاستغراب، فلذلك كان محل الاهتمام. ذلك أن حال المرأة إزاء الرجل في الجاهلية، كانت زوجة أم غيرها، هي حالة كانت مختلطة بين مظهر كرامة، وتنافس عند الرغبة، ومظهر استخفاف، وقلة إنصاف، عند الغضب، فأما الأول فناشئ عما جبل عليه العربي من الميل إلى المرأة، وصدق المحبة، فكانت المرأة مطمح نظر الرجل، ومحل تنافسه، رغبة في الحصول عليها بوجه من وجوه المعاشرة المعروفة عندهم، وكانت الزوجة مرموقة من الزوج بعين الاعتبار والكرامة قال شاعرهم وهو مرة بن محكان السعدي:
يا ربة البيت قومي، غير صاغرة ... ضمي إليك رحال القوم والقرابا
فسماها ربة البيت وخاطبها خطاب المتلطف حين أمرها فأعقب الأمر بقوله غير صاغرة
وأما الثاني فالرجل، مع ذلك، يرى الزوجة مجعولة لخدمته فكان إذا غاضبها أو ناشزته، ربما اشتد معها في خشونة المعاملة،

(١) التحرير والتنوير ٢/٣٠٤

وإذا تخالف رأيهما أرغمها على متابعته،". (١)

٥-"الميل إلى مفاسد كثيرة، ولأن طبع النفوس الشريرة ألا تراعي مضرة غيرها، بخلاف النفوس الصالحة، فالنفوس الشريرة أعمد إلى انتهاك حرمات غيرها، ولأن الأعمال الفاسدة أسرع في حصول آثارها، وانتشارها، فالقليل منها يأتي على الكثير من الصالحات، فلا جرم لولا دفاع الناس بأن يدافع صالحهم المفسدين، لأسرع ذلك في فساد حالهم، ولعم الفساد أمورهم في أسرع وقت.

وأعظم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب؛ فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل، ولأجلها تتألف العصبيات والدعوات إلى الحق، والإنحاء على الظالمين، وهزم الكافرين.

ثم إن دفاع الناس بعضهم بعضا يصد المفسد عن محاولة الفساد، ونفس شعور المفسد يتأهب غيره لدفاعه بصده عن اقتحام مفاسد جمة.

ومعنى فساد الأرض: إما فساد الجامعة البشرية. كما دل عليه تعليق الدفاع بالناس، أي لفسد أهل الأرض، وإما فساد جميع ما يقبل الفساد، فيكون في الآية **احتباك**، والتقدير: ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض وبقية الموجودات بعضها ببعض لفسدت الأرض: أي من على الأرض ولفسد الناس.

والآية مسوقة مساق الامتنان، فلذلك قال تعالى: ﴿لفسدت الأرض﴾ لأنا لا نحب فساد الأرض: إذ في فسادها بمعنى فساد ما عليها اختلال نظامنا، وذهاب أسباب سعادتنا، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ فهو استدراك مما تضمنته "لولا" من تقدير انتفاء الدفاع؛ لأن أصل "لولا" "لو" مع "لا" النافية: أي لو كان انتفاء الدفاع موجودا لفسدت الأرض وهذا الاستدراك في هذه الآية أدل دليل على تركيب "لولا" من "لو" و"لا": إذ لا يتم الاستدراك على قوله: ﴿لفسدت الأرض﴾ لأن فساد الأرض غير واقع بعد فرض وجود الدفاع، إن قلنا "لولا" حرف امتناع لوجود.

وعلق الفضل بالعالمين كلهم لأن هذه المنة لا تختص.

[٢٥٢] ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾

الإشارة إلى ما تضمنته القصص الماضية وما فيها من العبر، ولكن الحكم العالية في قوله: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ [البقرة:٢٥١]، وقد نزلها منزلة المشاهد لوضوحها وبيانها وجعلت آيات لأنها دلائل على عظم تصرف الله تعالى وعلى سعة علمه.". (٢)

٦-"كما تمسكوا بنظائرها. وغفلوا عن تغليظ وعيد الله تعالى في وقت نزول القرآن، إذ الناس يومئذ قريب عهدهم بكفر. ولا بد من الجمع بين أدلة الكتاب والسنة.

[٢٧٦] ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٣٧٧/٢

(٢) التحرير والتنوير ٤٨٠/٢

استئناف لبيان سوء عاقبة الربا في الدنيا بعد أن بينت عاقبته في الآخرة، فهو استئناف بياني لتوقع سؤال من يسأل عن حال هؤلاء الذين لا ينتهون بموعظة الله. وقوله: ﴿ويربي الصدقات﴾ استطراد لبيان عاقبة الصدقة في الدنيا أيضا ببيان أن المتصدق يفوز بالخير في الدارين كما باء المرابي بالشر فيهما، فهذا وعد ووعيد دنيويان.

والمحق هو كالمحو: بمعنى إزالة الشيء، ومنه محاق القمر ذهاب نوره ليلة السرار. ومعنى ﴿يمحق الله الربا﴾ أنه يتلف ما حصل منه في الدنيا، ﴿ويربي الصدقات﴾ أي يضاعف ثوابها لأن الصدقة لا تقبل الزيادة إلا بمعنى زيادة ثوابها، وقد جاء نظيره في قوله في الحديث: "من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا تلقاها الرحمان بيمينه وكلتا يديه يمين فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه".. ولما جعل المحق بالربا وجعل الإرباء بالصدقات كانت المقابلة مؤذنة بحذف مقابلين آخرين، والمعنى: يمحق الله الربا ويعاقب عليه، ويربي الصدقات ويبارك لصاحبها، على طريقة **الاحتباك**.

وجملة: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ معترضة بين أحكام الربا. ولما كان شأن الاعتراض ألا يخلو من مناسبة بينه وبين سياق الكلام، كان الإخبار بأن الله لا يحب جميع الكافرين مؤذنا بأن الربا من شعار أهل الكفر، وأنهم الذين استباحوه فقالوا إنما البيع مثل الربا، فكان هذا تعريضا بأن المرابي متسم بخلال أهل الشرك.

ومفاد التركيب أن الله لا يحب أحدا من الكافرين الآثمين لأن "كل" من صيغ العموم، فهي موضوعة لاستغراق أفراد ما تضاف إليه وليست موضوعة للدلالة على صبرة مجموعة، ولذلك يقولون ÷ي موضوعة للكل الجميعي، وأما الكل المجموعي فلا تستعمل فيه كل إلا مجازا. فإذا أضيفت "كل" إلى اسم استغرقت جميع أفراده، سواء ذلك في الإثبات وفي النفي، فإذا دخل النفي على "كل" كان المعنى عموم النفي لسائر الأفراد، لأن النفي كيفية تعرض للجملة فالأصل فيه أن يبقى مدلول الجملة كما هو، إلا أنه يتكيف بالسلب عوضا عن تكيفه بالإيجاب، فإذا قلت كل الديار ما دخلته، أو لم أدخل كل دار، أو كل دار لم أدخل، أفاد ذلك نفي دخولك أية دار من الديار، كما أن مفاده في حالة". [١]

٧-"لتعين أن نصور ذلك الملك بصورة رجل،لأنه لا محيد عن تشكله بشكل لتمكن إحاطة أبصارهم به وتحيزه فإذا تشكل فإنما يتشكل في صورة رجل ليطيقوا رؤيته وخطابه،وحينئذ يلتبس عليهم أمره كما التبس عليهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم.

فجملة ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ من تمام الدليل والحجة عليهم بعدم جدوى إرسال الملك.

واللبس:خلط يعرض في الصفات والمعاني بحيث يعسر تمييز بعضها عن بعض.وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ في سورة البقرة[٤٢].وقد عدي هنا بحرف"على"لأن المراد لبس فيه غلبة لعقولهم.

والمعنى:وللبسنا على عقولهم،فشكوا في كونه ملكا فكذبوه،إذ كان دأب عقولهم تطلب خوارق العادات استدلالا بها على الصدق،وترك إعمال النظر الذي يعرف به صدق الصادق.

و ﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما يلبسون﴾ مصدرية مجردة عن الظرفية،والمعنى على التشبيه،أي وللبسنا عليهم لبسهم الذي وقع لهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٥٥٨

حين قالوا: ﴿لولا أنزل عليه ملك﴾ ،أي مثل لبسهم السابق الذي عرض لهم في صدق محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي الكلام **احتباك** لأن كلا اللبسين هو بتقدير الله تعالى،لأنه حرمهم التوفيق.فالتقدير:وللبسنا عليهم في شأن الملك فيلبسون على أنفسهم في شأنه كما لبسنا عليهم في شأن محمد صلى الله عليه وسلم إذ يلبسون على أنفسهم في شأنه.وهذا الكلام كله منظور فيه إلى حمل اقتراحهم على ظاهر حاله من إرادتهم الاستدلال،فلذلك أجيبوا عن كلامهم إرخاء للعنان،وإلا فإنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز والاستهزاء، ولذلك عقبه بقوله: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ الآية.

[١٠] ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾

عطف على جملة ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ لبيان تفننهم في المكابرة والعناد تصلبا في شركهم وإصرارا عليه،فلا يتركون وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة الإسلام إلا توسلوا بها.ومناسبة عطف هذا الكلام على قوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه". [١]

٨-"وقابل قوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ بقوله: ﴿وإن يمسسك بخير﴾ مقابلة بالأعم،لأن الخير يشمل النفع وهو الملائم ويشمل السلامة من المنافر، للإشارة إلى أن المراد من الضر ما هو أعم،فكأنه قيل:إن يمسسك بضر وشر وإن يمسسك بنفع وخير، ففي الآية **احتباك**.وقال ابن عطية:"ناب الضر في هذه الآية مناب الشر والشر أعم وهو مقابل الخير.وهو من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة، فإن من باب التكلف أن يكون الشيء مقترنا بالذي يختص به ونظر هذا بقوله تعالى: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ [طه:١١٨,١١٩].اهـ.

وقوله: ﴿فهو على كل شيء قدير﴾ [الأنعام:١٩]جعل جوابا للشرط لأنه علة الجواب المحذوف والجواب المذكور قبله، إذ التقدير:وإن يمسسك بخير فلا مانع له لأنه على كل شيء قدير في الضر والنفع.وقد جعل هذا العموم تمهيدا لقوله بعده: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام:١٨].

[١٨] ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾

هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ [الأنعام:١٧]الآية، والمناسبة بينهما أن مضمون كلتيهما يبطل استحقاق الأصنام العبادة.فالآية الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكون للأصنام تصرف في أحوال المخلوقات،وهذه الآية أبطلت أن يكون غير الله قاهرا على أحد أو خبيرا أو عالما بإعطاء كل مخلوق ما يناسبه،ولا جرم أن الإله تجب له القدرة والعلم، وهما جماع صفات الكمال، كما تجب له صفات الأفعال من نفع وضر وإحياء وإماتة،وهي تعلقات للقدرة أطلق عليها اسم الصفات عند غير الأشعري نظرا للعرف،وأدخلها الأشعري في صفة القدرة لأنها تعلقات لها،وهو التحقيق.

ولذلك تتنزل هذه الآية من التي قبلها منزلة التعميم بعد التخصيص لأن التي قبلها ذكرت كمال تصرفه في المخلوقات وجاءت به في قالب تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم كما قدمنا،وهذه الآية أوعت قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء،وذلك أصل جميع الفعل والصنع.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٦

والقاهر الغالب المكره الذي لا ينفلت من قدرته من عدي إليه فعل القهر.
وقد أفاد تعريف الجزأين القصر،أي لا قاهر إلا هو،لأن قهر الله تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذا،لأنه قهر بأسباب لا يستطيع أحد خلق ما". (١)

٩-"بدا لي أني لست مدرك ما مضى ... ولا سابق شيئا إذا كان جاثيا
ولما قوبل ﴿بدا لهم﴾ في هذه الآية بقوله: ﴿ما كانوا يخفون﴾ علمنا أن البداء هو ظهور أمر في أنفسهم كانوا يخفونه في الدنيا،أي خطر لهم حينئذ ذلك المخاطر الذي كانوا يخفونه،أي الذي كان يبدو لهم، أي يخطر ببالهم وقوعه فلا يعلنون به فبدا لهم الآن فأعلنوا به وصرحوا معترفين به.ففي الكلام **احتباك**، تقديره:بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه.وذلك أنهم كانوا يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم،وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم، كما ذكرناه عند قوله تعالى: ﴿لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ في هذه السورة[٥٢]،وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ في سورة الحجر[٢].وهذا التفسير يغني عن الاحتمالات التي تحير فيها المفسرون وهي لا تلائم نظم الآية، فبعضها يساعده صدرها وبعضها يساعده عجزها وليس فيها ما يساعده جميعها.
وقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكون بمنزلة التسليم الجدلي في المناظرة،أي لو أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه،وهو التكذيب وإنكار البعث،وذلك لأن نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البينات،هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير،وإنما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من ذلك الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.
وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل لا قرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره، فالانفعال به يشبه انفعال العجماوات من الزجر والسوط ونحوهما.ويزول بزواله حتى يعاوده مثله.
وقوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ تذييل لما قبله.جيء بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات،أي أن الكذب سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإن الكذب سجيتهم.وقد تضمن تمنيهم وعدا،". (٢)

١٠-"وعدي ﴿يجحدون﴾ بالباء كما عدي في قوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل: ١٤] لتأكيد تعلق الجحد بالمجحود، كالباء في قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ [المائدة: ٦] ،وفي قوله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٤٣
(٢) التحرير والتنوير ٦/٦٢

إلا أن كذب بها الأولون﴾ [الاسراء: ٥٩] ،وقول النابغة:

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا ... وأصبح جد الناس يظلع عاثرا

ثم إن الجحد بآيات الله أريد به الجحد بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات.وجحدها إنكار أنها من آيات الله،أي تكذيب الآتي بها في قوله: إنها من عند الله، فآل ذلك إلى أنهم يكذبون الرسول عليه الصلاة والسلام فكيف يجمع هذا مع قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ على قراءة الجمهور.والذي يستخلص من سياق الآية أن المراد فإنهم لا يعتقدون أنك كاذب لأن الرسول عليه الصلاة والسلام معروف عندهم بالصدق وكان يلقب بينهم بالأمين.وقد قال النضر بن الحارث لما تشاورت قريش في شأن الرسول: "يا معشرقريش قد كان محمد فيكم غلاما أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه قلتم ساحر وقلتم كاهن وقلتم شاعر وقلتم مجنون ووالله ما هو بأولئكم".ولأن الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد في أنها من عند الله، ولأن دلائل صدقه بينة واضحة ولكنكم ظالمون.

والظالم هو الذي يجري على خلاف الحق بدون شبهة.فهم ينكرون الحق مع علمهم بأنه الحق، وذلك هو الجحود.وقد أخبر الله عنهم بذلك وهو أعلم بسرائرهم.ونظيرها قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ [النمل: ١٤] فيكون في الآية **احتباك**.والتقدير: فإنهم لا يكذبونك ولا يكذبون الآيات ولكنهم يجحدون بالآيات ويجحدون بصدقك، فحذف من كل لدلالة الآخر.

وأخرج الترمذي عن ناجية بن كعب التابعي أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به".فأنزل الله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ ".ولا أحسب هذا هو سبب نزول الآية.لأن أبا جهل إن كان قد قال ذلك فقد أراد الاستهزاء،كما قال ابن العربي في العارضة: "ذلك أنه التكذيب بما جاء به تكذيب له لا محالة، فقوله: لا نكذبك،استهزاء بإطماع التصديق".

[٣٤] ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا". [1]

١١-"واللام في قوله: ﴿لرب العالمين﴾ متعلقة بـ ﴿نسلم﴾ لأنه معنى تخلص له قال: ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ .وقد تقدم القول في معنى الإسلام عند قوله تعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ في سورة البقرة[١٣١].وفي ذكر اسم الله تعالى بوصف الربوبية لجميع الخلق دون اسمه العلم إشارة إلى تعليل الأمر وأحقيته.

وقوله: ﴿وأن أقيموا الصلاة﴾ إن جعلت"أن"فيه مصدرية على قول سيبويه، إذ يسوغ دخول"أن"المصدرية على فعل الأمر فتفيد الأمر والمصدرية معا لأن صيغة الأمر لم يؤت بها عبثا، فنقول المعربين: "إنه يتجرد عن الأمرية"، مرادهم به أنه تجرد عن معنى فعل الأمر إلى معنى المصدرية فهو من عطف المفردات.وهو إما عطف على ﴿لنسلم﴾ بتقدير حرف جر محذوف قبل"أن"وهو الباء.وتقدير الحرف المحذوف يدل عليه معنى الكلام، وإما عطف على معنى ﴿لنسلم﴾ لأنه وقع في موقع بأن نسلم، كما تقدم عن الزجاج.فالتقدير: أمرنا بأن نسلم، ثم عطف عليه ﴿وأن أقيموا﴾ أي وأمرنا بأن أقيموا، والعطف على

(١) التحرير والتنوير ٧٤/٦

معنى اللفظ وموقعه استعمال عربي، كقوله تعالى: ﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن﴾ [المنافقون: ١٠]إذ المعنى إن تؤخرني أصدق وأكن.

وإن جعلت"أن"فيه تفسيرية فهو من عطف الجمل.فيقدر قوله: ﴿أمرنا لنسلم﴾ بأمرنا أن أسلموا لنسلم ﴿وأن أقيموا الصلاة﴾ أي لنقيم فيكون في الكلام **احتباك**.

وأظهر من هذا أن تكون"أن"تفسيرية.وهي تفسير لما دلت عليه واو العطف من تقدير العامل المعطوف عليه، وهو ﴿وأمرنا﴾ ، فإن ﴿أمرنا﴾ فيه معنى القول دون حروفه فناسب موقع"أن"التفسيرية.

وتقدم معنى إقامة الصلاة في صدر سورة البقرة[٣].

و ﴿اتقوه﴾ عطف على ﴿أقيموا﴾ ويجري فيه ما قرر في قوله: ﴿وأن أقيموا﴾ .

والضمير المنصوب عائد إلى ﴿رب العالمين﴾ وهو من الكلام الذي أمروا بمقتضاه بأن قال الله للمؤمنين: أسلموا لرب العالمين وأقيموا الصلاة واتقوه.ويجوز أن يكون محكيا بالمعنى بأن قال الله: اتقون، فحكي بما يوافق كلام النبي المأمور بأن يقوله بقوله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ ، كما في حكاية قول عيسى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ [المائدة: ١١٧].

وجمع قوله: ﴿واتقوه﴾ جميع أمور الدين، وتخصيص إقامة الصلاة بالذكر". (١)

١٢-"والزيتون، وهو العجم بالتحريك اسم جمع عجمة.

وجملة ﴿يخرج الحي من الميت﴾ في محل خبر ثان عن اسم"إن"تتنزل منزلة بيان المقصود من الجملة قبلها وهو الفلق الذي يخرج منه نبتا أو شجرا ناميا ذا حياة نباتية بعد أن كانت الحبة والنواة جسما صلبا لا حياة فيه ولا نماء.فلذلك رجح فصل هذه الجملة عن التي قبلها إلا أنها أعم منها لدلالتها على إخراج الحيوان منماء النطفة أو من البيض، فهي خبر آخر ولكنه بعمومه يبين الخبر الأول، فلذلك يحسن فصل الجملة، أو عدم عطف أحد الأخبار.

وعطف على ﴿يخرج الحي من الميت﴾ قوله: ﴿ومخرج الميت من الحي﴾ لأنه إخبار بضد مضمون ﴿يخرج الحي من الميت﴾ وصنع آخر عجيب دال على كمال القدرة وناف تصرف الطبيعة بالخلق، لأن الفعل الصادر من العالم المختار يكون على أحوال متضادة بخلاف الفعل المتولد عن سبب طبعي، وفي هذا الخبر تكملة بيان لما أجمله قوله: ﴿فالق الحب والنوى﴾ ، لأن فلق الحب عن النبات والنوى عن الشجر يشمل أحوالا مجملة، منها حال إثمار النبات والشجر: حبا ييبس وهو في قصب نباته فلا تكون فيه حياة، ونوى في باطن الثمار يبسا لا حياة فيه كنوى الزيتون والتمر، ويزيد على ذلك البيان بإخراج البيض واللبن والمسك واللؤلؤ وحجر"البازهر"من بواطن الحيوان الحي، فظهر صدور الضدين عن القدرة الإلهية تمام الظهور.

وقد رجح عطف هذا الخبر لأنه كالتكملة لقوله: ﴿يخرج الحي من الميت﴾ أي يفعل الأمرين معا كقوله بعده: ﴿فالق

(١) التحرير والتنوير ١٦٥/٦

الإصباح وجعل الليل سكنا﴾ .وجعله في"الكشاف"عطفا على: ﴿فالق الحب﴾ بناء على أن مضمون قوله: ﴿مخرج الميت من الحي﴾ ليس فيه بيان لمضمون: ﴿فالق الحب﴾ لأن فلق الحب ينشأ عنه إخراج الحي من الميت لا العكس، وهو خلاف الظاهر لأن علاقة وصف: ﴿مخرج الميت من الحي﴾ بخبر ﴿يخرج الحي من الميت﴾ أقوى من علاقته بخبر: ﴿فالق الحب والنوى﴾ .

وقد جيء بجملة ﴿يخرج الحي من الميت﴾ فعلية للدلالة على أن ها الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق.

وجيء في قوله: ﴿ومخرج الميت من الحي﴾ اسما للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعلين متجدد وثابت، أي كثير وذاتي، وذلك لأن أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه فكان في الأسلوب شبه **الاحتباك."**. (١)

١٣-"بالربوبية أيضا لله تعالى.

وقوله: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ من القول المأمور به، مفيد متاركة للمشركين ومقتا لهم بأن عنادهم لا يضره، فإن ما اقترفوه من الشرك لا يناله منه شيء فإنما كسب كل نفس عليها، وهم من جملة الأنفس فكسبهم عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم. فالتعليم في الحكم الواقع في قوله: ﴿كل نفس﴾ فائدته مثل فائدة التعميم الواقع في قوله: ﴿وهو رب كل شيء﴾.

ودلت كلمة "على" على أمن مفعول الكسب المحذوف تقديره: شرا، أو إثما، أو نحو ذلك، لأن شأن المخاطبين هو اكتساب الشر والإثم كقوله: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ [الأنعام: ٥٢] ولك أن تجعل في الكلام **احتباكا** لدلالة الثاني وبالعكس إذا جريت على أن "كسب" يغلب في تحصيل الخير، وأن "اكتسب" يغلب في تحصيل الشر، سواء أجتمع الفعلان أم لم يجتمعا. ولا أحسب بين الفعلين فرقا، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ [البقرة: ٢٨٦]. والمعنى: أن ما يكتسبه المرء أو يكسبه لا يتعدى منه شيء إلى غيره.

وقوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ تكملة لمعنى قوله: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ فكما أن ما تكسبه نفس لا يتعدى منه شيء إلى غيرها، كذلك لا تحمل نفس عن نفس شيئا، والمعنى: ولا أحمل أوزاركم.

فقوله: ﴿وازرة﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: نفس، دل عليه قوله: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾، أي لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى.

والوزر: الحمل، وهو ما يحمله المرء على ظهره، قال تعالى: ﴿ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم﴾ [طه: ٨٧]، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ [الأنعام: ٣١]. وأما تسمية الإثم وزرا فلأنه يتخيل ثقيلا على نفس المؤمن. فمعنى ﴿ولا تزر وازرة﴾ لا تحمل حاملة، أي لا تحمل حمل أي نفس أخرى غيرها، فالمعنى لا تغني نفس عن نفس شيئا تحمله عنها. أي كل نفس تزر وزر نفسها، فيفد أن وزر كل نفس أحد عليه وأنه لا يحمل غيره عنه

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٣١

شيئا من وزره الذي وزره وأنه لا تبعة على أحد من وزر غيره من قريب أو صديق، فلا تغني نفس عن نفس شيئا، ولا تتبع نفس بإثم غيرها، فهي إن حملت لا تحمل حمل غيرها. وهذا إتمام". (١)

١٤-"العناية به كقوله: ﴿لما خلقت بيدي﴾ [ص: ٧٥] ليدل على تشريف ذلك النبات، فهو في معنى الوصف بالزكاء، والمعنى: البلد الطيب يخرج نباته طيبا زكيا مثله، وقد أشار إلى طيب نباته بان خروجه بإذن ربه، فأريد بهذا الإذن إذن خاص هو إذن عناية وتكريم، وليس المراد إذن التقدير والتكوين فإن ذلك إذن معروف لا يتعلق الغرض ببيانه في مثل هذا المقام.

﴿والذي خبث﴾ حمله جميع المفسرين على أنه وصف للبلد، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطيب، وفسروه بالأرض التي لا تنبت إلا نباتا لا ينفع، ولا يسرع إنباتها، مثل السباخ، وحملوا ضمير يخرج على أنه عائد للنبات، وجعلوا تقدير الكلام: والذي خبث لا "يخرج" نباته إلا نكدا، فحذف المضاف فالتقدير، وهو نبات، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهو ضمير البلد الذي خبث، المستتر في فعل يخرج.

والذي يظهر لي: أن يكون ﴿الذي﴾ صادقا على نبات الأرض، والمعنى: والنبت الذي خبث لا يخرج إلا نكدا، ويكون في الكلام **احتباك** إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيبا بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكدا من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.

وقرأ الجميع ﴿لا يخرج﴾ بفتح التحتية وضم الراء إلا ابن وردان عن أبي جعفر قرأ بضم التحتية وكسر الراء على خلاف المشهور عنه، وقيل إن نسبة هذا لابن وردان توهم.

والنكد وصف من النكد بفتح الكاف وهو مصدر نكد الشيء إذا كان غير صالح يجر على مستعمله شرا. وقرأ أبو جعفر ﴿إلا نكدا﴾ ، بفتح الكاف.

وفي تفصيل معنى الآية جاء الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع بها الله الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع لذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".". (٢)

١٥-"مكتوبا بالعربية كتبها القصاصون من أهل الحيرة والأنبار تذكرة لأنفسهم، وإنما هي أخبار لا حكمة فيها ولا موعظة، وقد أطال فيها الفردوسي في كتاب "الشاهنامه" تطويلا مملا على عادة أهل القصص، وقال الفخر: اشترى النضر

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٤/٧

(٢) التحرير والتنوير ١٤٣/٨

من الحيرة أحاديث كليلة ودمنة، وكان يقعد مع المستهزئين والمقتسمين وهو منهم فيقرأ عليهم أساطير الأولين، فإسناد قول النضر بن الحارث إلى جماعة المشركين: من حيث إنهم كانوا يؤيدونه ويحكونه ويحاكونه، ويحسبون فيه معذرة لهم عن العجز الذي تلبسوا به في معارضة القرآن، وأنه نفس عليهم بهذه الأغلوطة، فإذا كان الذي ابتكره هو النضر بن الحارث فليس يمتنع أن تصدر أمثال هذا القول من أمثاله وأتباعه، فمن ضمنهم مجلسه الذي جاء فيه بهذه التراقة.

وقولهم: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ إيهام بأنهم ترفعوا عن معارضته، وأنهم لو شاءوا لنقلوا من أساطير الأولين إلى العربية ما يوازي قصص القرآن وهذه وقاحة، وإلا فما منعهم أن يشاءوا معارضة من تحداهم وقرعهم بالعجز بقوله: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٤] مع تحيزهم وتأمرهم في إيجاد معذرة يعتذرون بها عن القرآن وإعجازه إياهم وتحديه لهم، وما قاله الوليد بن المغيرة في أمر القرآن.

"والأساطير" جمع أسطورة بضم الهمزة وهي القصة وتقدم عند قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ في سورة الأنعام[٢٥].

والمخالفة بين شرط ﴿لو﴾ وجوابها إذ جعل شرطها مضارعا والجزاء ماضيا جرى على الاستعمال في "لو" غالبا، لأنها موضوعة للماضي فلزم أن يكون أحد جزأي جملتها ماضيا، أو كلاهما، فإذا أريد التفنن خولف بينهما، فالتقدير: لو شئنا لقلنا، ولا يبعد عندي في مثل هذا التركيب أن يكون **احتباكا** قائما مقام شرطين وجزاءين فإحدى الجملتين مستقبلة والأخرى ماضية، فالتقدير لو نشاء أن نقول نقول، ولو شئنا القول في الماضي لقلنا فيه، فذلك أوعب للأزمان، ويكون هذا هو الفرق بين قوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا﴾ [الرعد: ٣١] فهم لما قالوا ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ ادعوا القدرة على قول مثله في الماضي وفي المستقبل إغراقا في النفاجة والوقاحة.

[٣٢، ٣٣] ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا". (١)

١٦-"بأنفسهم، لأن عهود النبي عليه الصلاة والسلام إنما كانت لمصلحة المسلمين، في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقية قوة للمشركين، وإلا فإن أهل الشرك ما كانوا يستحقون من الله ورسوله توسعة ولا عهدا لأن مصلحة الدين تكون أقوم إذا شدد المسلمون على أعدائه، فالآن لما كانت مصلحة الدين متمحضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه، وإن كان العهد قد عقده النبي صلى الله عليه وسلم ليعلموا أن ذلك توسعة على المسلمين، على نحو ما جرى من المحاورة بين عمر بن الخطاب وبين النبي صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية، وعلى نحو ما قال الله تعالى في ثبات الواحد من المسلمين لاثنين من المشركين، على أن في الكلام **احتباكا**، لما هو معروف من أن المسلمين لا يعملون عملا إلا عن أمر من الله ورسوله، فصار الكلام في قوة براءة من الله ورسوله ومنكم، إلى الذين عاهدوا الله ورسوله وعاهدتم، فالقبائل التي كان لها

---

(١) التحرير والتنوير ٩/٨٤

عهد مع المسلمين حين نزول هذه السورة قد جمعها كلها الموصول في قوله: ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ . فالتعريف بالموصولية هنا لأنها أخصر طريق للتعبير عن المقصود، مع الإشارة إلى أن هذه البراءة براءة من العهد، ثم بين بعضها بقوله: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا﴾ [التوبة:٤] الآية.

[٢] ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾.

﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ .

الفاء للتفريع على معنى البراءة، لأنها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاما للمشركين، الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنهم الموجه إليهم الكلام وذلك التفات. فالتقدير: فليسيحوا في الأرض ونكتة هذا الالتفات إبلاغ الإنذار إليهم مباشرة.

ويجوز تقدير قول محذوف مفرع على البراءة من عهودهم، أي فقل لهم: سيحوا في الأرض أربعة أشهر.

والسياحة حقيقتها السير في الأرض، ولما كان الأمر بهذا السير مفرعا على البراءة من العهد، ومقررا لحرمة الأشهر الحرام، علم أن المراد السير بأمن دون خوف في أي مكان من الأرض، وليس سيرهم في أرض قومهم، دل على ذلك إطلاق السياحة". (١)

١٧-"أن الجهاد أثر الإيمان، وهو ملازم للإيمان، فلا يجوز للمؤمن التنصل منه بعلة اشتغاله بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. وليس ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر لكون الذين جعلوا مزية سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مثل مزية الإيمان ليسوا بمؤمنين لأنهم لو كانوا غير مؤمنين لما جعلوا مناصب دينهم مساوية للإيمان، بل لجعلوها أعظم. وإنما توهموا أنهما عملان يعدلان الجهاد، وفي الشغل بهما عذر للتخلف عن الجهاد، أو مزية دينية تساوي مزية المجاهدين.

وقد دل ذكر السقاية والعمارة في جانب المشبه، وذكر من آمن وجاهد في جانب المشبه به، على أن العملين ومن عملهما لا يساويان العملين الآخرين ومن عملهما. فوقع **احتباك** في طرفي التشبيه، أي لا يستوي العملان مع العملين ولا عاملوا هذين بعاملي ذينك العملين. والتقدير: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وجعلتم سقاية الحاج وعمار المسجد كالمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله. ولما ذكرت التسوية في قوله: ﴿لا يستوون عند الله﴾ أسندت إلى ضمير العاملين، دون الأعمال: لأن التسوية لم يشتهر في الكلام تعليقها بالمعاني بل بالذوات.

وجملة ﴿لا يستوون﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا: لبيان ما يسأل عنه من معنى الإنكار الذي في الاستفهام بقوله: ﴿أجعلتم﴾ الآية.

وجملة ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ تذييل لجملة ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ إلخ، وموقعه هنا خفي إن كانت السورة قد نزلت بعد غزوة تبوك، وكانت هذه الآية مما نزل مع السورة ولم تنزل قبلها، على ما رجحناه من رواية النعمان بن بشير في سبب نزولها، فإنه لم يبق يومئذ من يجعل سقاية الحاج وعمارة البيت تساويان الإيمان والجهاد، حتى يرد عليه بما يدل على

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٠

عدم اهتدائه. وقد تقدم ما روي عن عمر بن الخطاب في سبب نزولها وهو يزيد موقعها خفاء.

فالوجه عندي في موقع جملة ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أن موقعها الاعتراض بين جملة ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ وجملة ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا﴾ [التوبة: ٢٠] آلخ.

والمقصود منها زيادة التنويه بشأن الإيمان، إعلاما بأنه دليل إلى الخيرات، وقائد إليها. فالذين آمنوا قد هداهم إيمانهم إلى فضيلة الجهاد، والذين كفروا لم ينفعهم ما كانوا". (١)

١٨-"يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [التوبة:٤٤] وقد كانت مغنية عن الجملة المؤكدة لولا أن المراد من تقديم تلك الجملة التنويه بفضيلة المؤمنين، فالكلام إطناب لقصد التنويه، والتنويه من مقامات الإطناب.

وحذف متعلق ﴿يستأذنك﴾ هنا لظهوره مما قبله مما يؤذن به فعل الاستئذان في قوله: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا﴾ [التوبة:٤٤] والتقدير: إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون في أن لا يجاهدوا، ولذلك حذف متعلق يستأذنك هنا.

والسامع البليغ يقدر لكل كلام ما يناسب إرادة المتكلم البليغ، وكل على منواله ينسج.

وعطف ﴿وارتابت قلوبهم﴾ على الصلة وهي ﴿لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ يدل على أن المراد بالارتياب الارتياب في ظهور أمر النبي صلى الله عليه وسلم فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه فأظهروا الإسلام لئلا يفوتهم ما يحصل للمسلمين من العز والنفع، على تقدير ظهور أمر الإسلام، وأبطنوا الكفر حفاظا على دينهم الفاسد وعلى صلتهم بأهل ملتهم، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ [النساء:١٤١].

ولعل أعظم ارتيابهم كان في عاقبة غزوة تبوك لأنهم لكفرهم ما كانوا يقدرون أن المسلمين يغلبون الروم، هذا هو الوجه في تفسير قوله: ﴿وارتابت قلوبهم﴾ كما آذن به قوله: ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ .

وجيء في قوله: ﴿لا يؤمنون﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نفي إيمانهم، وفي ﴿وارتابت قلوبهم﴾ بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم، ولما كان الارتياب ملازما لانتفاء الإيمان كان في الكلام شبه **الاحتباك** إذ يصير بمنزلة أن يقال: الذين لم يؤمنوا ولا يؤمنون وارتابت وترتاب قلوبهم.

وفرع قوله: ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ على ﴿وارتابت قلوبهم﴾ تفريع المسبب على السبب: لأن الارتياب هو الشك في الأمر بسبب التردد في تحصيله، فلترددهم لم يصارحوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعصيان لاستنفاره، ولم يمتثلوا له فسلكوا مسلكا يصلح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القعود، فالاستئذان مسبب على التردد، والتردد مسبب على". (٢)

(١) التحرير والتنوير ٥٠/١٠

(٢) التحرير والتنوير ١٠٩/١٠

١٩-"والشأن: العمل المهم والحال المهم. و"في" للظرفية المجازية التي بمعنى شدة التلبس.

وضمير "منه" إما عائد إلى " ﴿شأن﴾ "، أي وما تتلو من الشأن قرآنا فتكون "من" مبينة ل "ما" الموصولة أو تكون بمعنى لام التعليل، أي تتلو من أجل الشأن قرآنا. وعطف ﴿وما تتلو﴾ من عطف الخاص على العام للاهتمام به، فإن التلاوة أهم شؤون الرسول - عليه الصلاة السلام -.

وإما عائد إلى ﴿قرآن﴾ ، أي وما تتلو من القرآن قرآنا، فتكون ﴿منه﴾ للتبعيض، والضمير عائد إلى مؤخر لتحصيل التشويق إليه حتى يتمكن في نفس السامع. وواو "تتلو" لام الكلمة، والفعل متحمل لضمير مفرد لخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم.

فيكون الكلام قد ابتدئ بشؤون النبيء صلى الله عليه وسلم التي منها ما هو من خواصه كقيام الليل، وثني بما هو من شؤونه بالنسبة إلى الناس وهو تلاوة القرآن على الناس، وثلث بما هو من شؤون الأمة في قوله: ﴿ولا تعملون من عمل﴾ فإنه وإن كان الخطاب فيه شاملا للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن تقديم ذكر شأن في أول الآية يخصص عموم الخطاب في قوله: ﴿تعملون﴾ فلا يبقى مرادا منه إلا ما يعمله بقية المسلمين.

ووقع النفي مرتين بحرف "ما" ومرة أخرى بحرف "لا" لأن حرف "ما" أصله أن يخلص المضارع للحال، فقصد أولا استحضار الحال العظيم من شأن النبيء صلى الله عليه وسلم ومن قراءته القرآن، ولما نفي عمل الأمة جيء بالحرف الذي الأصل فيه تخليصه المضارع للاستقبال للتنبية من أول الكلام على استمرار ذلك في الأزمنة كلها.

ويعلم من قرينة العموم في الأفعال الثلاثة بواسطة النكرات الثلاث المتعلقة بتلك الأفعال والواقعة في سياق النفي أن ما يحصل في الحال وما يحصل في المستقبل من تلك الأفعال سواء، وهذا من بديع الإيجاز والإعجاز. وكذلك الجمع بين صيغ المضارع في الأفعال المعممة ﴿تكون – تتلو – وتعملون﴾ وبين صيغة الماضي في الفعل الواقع في موضع الحال منها ﴿إلا كنا﴾ للتنبيه على أن ما حصل ويحصل وسيحصل سواء في علم الله تعالى على طريقة **الاحتباك** كأنه قيل: وما كنتم وتكون وهكذا، إلا كنا ونكون عليكم شهودا.

و ﴿من عمل﴾ مفعول ﴿تعملون﴾ فهو مصدر بمعنى المفعول وأدخلت عليه "من"". (١)

٢٠-"الله ولدا﴾ [يونس: ٦٨] جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنهم وخرصهم بشواهد خلق الليل والنهار المشاهد في كل يوم من العمر مرتين وهم في غفلة عن دلالته، وهو خلق نظام النهار والليل.

وكيف كان النهار وقتا ينتشر فيه النور فيناسب المشاهدة لاحتياج الناس في حركات أعمالهم إلى إحساس البصر الذي به تتبين ذوات الأشياء وأحوالها لتناول، الصالح منها في العمل ونبذ غير الصالح للعمل.

وكيف كان الليل وقتا تغشاه الظلمة فكان مناسبا للسكون لاحتياج الناس فيه إلى الراحة من تعب الأعمال التي كدحوا لها في النهار. فكانت الظلمة باعثة الناس على الراحة ومحددة لهم إبانها بحيث يستوي في ذلك الفطن والغافل.

---

(١) التحرير والتنوير ١١/١١٩

ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام **احتباك**.

ووصف النهار بمبصر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتى جعل النهار هو المبصر. والمراد: مبصرا فيه الناس.

ومن لطائف المناسبة أن النور الذي هو كيفية زمن النهار شيء وجودي فكان زمانه حقيقيا بأن يوصف بأوصاف العقلاء، بخلاف الليل فان ظلمته عدمية فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.

وفي قوله: ﴿هو الذي جعل لكم الليل﴾ طريق من طرق القصر وهو تعريف المسند والمسند إليه. وهو هنا قصر حقيقي وليس إضافيا كما توهمه بعض الكاتبين إذ جعله قصر تعيين، وهم معترفون به لا يستطيعون دفع هذا الاستدلال، فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التي منها الخلق والتقدير، وأن آلهتهم انتفت عنها خصائص الالهية، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام. وهذا الامتنان مستفاد من قوله: ﴿جعل لكم﴾ ومن تعليل خلق الليل بعلة سكون الناس فيه، وخلق النهار بعلة إبصار الناس، وكل الناس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك، فان في العمل بالنهار نعما جمة من تحصيل رغبات، ومشاهدة محبوبات، وتحصيل أموال وأقوات، وأن في السكون بالليل نعما جمة من". (١)

٢١-"والبأس: هو عذاب المجرمين الذي هو نصر الرسل عليهم السلام. والقوم المجرمون: الذين كذبوا الرسل.

وقرأ الجمهور ﴿فنجي﴾ بنونين وتخفيف الجيم وسكون الياء مضارع أنجى. و ﴿من نشاء﴾ مفعول ﴿نجي﴾. وقرأه ابن عامر وعاصم ﴿فنجي﴾ بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم مكسورة وفتح التحتية على أنه ماضي نجى المضاعف بني للنائب، وعليه ف ﴿من نشاء﴾ هو نائب الفاعل، والجمع بين الماضي في "نجي" والمضارع في ﴿نشاء﴾ **احتباك** تقديره فنجي من شئنا ممن نجا في القرون السالفة وننجي من نشاء في المستقبل من المكذبين.

[١١١] ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

هذا من رد العجز على الصدر فهي مرتبطة بجملة ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ [سورة يوسف: ١٠٢] وهي تتنزل منها منزلة البيان لما تضمنه معنى الإشارة في قوله: ﴿ذلك من أنباء الغيب﴾ من التعجيب، وما تضمنه معنى ﴿وما كنت لديهم﴾ من الاستدلال على أنه وحي من الله مع دلالة الأمية.

وهي أيضا تتنزل منزلة التذييل للجمل المستطرد بها لقصد الاعتبار بالقصة ابتداء من قوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [سورة يوسف: ١٠٣].

فلها مواقع ثلاثة عجيبة من النظم المعجز.

وتأكيد الجملة ب"قد" واللام للتحقيق.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣١/١١

وأولو الألباب: أصحاب العقول. وتقدم في قوله: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ في أواسط سورة البقرة [١٩٧].
والعبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب. وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار المذكور من إطلاق المصدر على المفعول كما هنا. ومعنى كون العبرة في قصصهم أنها مظروفة فيه ظرفية مجازية، وهي ظرفية المدلول في الدليل فهي قارة في قصصهم سواء اعتبر بها من وفق للاعتبار أم لم يعتبر لها". (١)

٢٢-"صفة الإنذار وهو قصر إضافي، أي أنت منذر لا موجد خوارق عادة. وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.
وجملة ﴿ولكل قوم هاد﴾ تذييل بالأعم. أي إنما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم. ولكل قوم هاد أرسله الله ينذرهم لعلهم يهتدون. فما كنت بدعا من الرسل وما كان للرسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهره على أيديهم. على أن معجزات الرسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم.
ولما كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم عربا أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".
وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرسول صلى الله عليه وسلم صار المعنى إنما أنت منذر لقومك هاد إياهم إلى الحق. فإن الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلا وهو هداية وما من هداية إلا وفيها إنذار، والهداية أعم من الإنذار. ففي هذا **احتباك** بديع.
وقرأ الجمهور ﴿هاد﴾ بدون ياء في آخره في حالتي الوصل والوقف. أما في الوصل فلالتقاء الساكنين سكون الياء وسكون التنوين الذي يجب النطق به في حالة الوصل، وأما في حالة الوقف فتبعا لحالة الوصل، وهو لغة فصيحة وفيه متابعة رسم المصحف.
وقرأه ابن كثير في الوصل مثل الجمهور. وقراه بإثبات الياء في الوقف لزوال موجب حذف الياء وهو لغة صحيحة.
[٨] [٩] ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾.
انتقال إلى الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية، فهو متصل بجملة ﴿الله الذي رفع السماوات﴾ [الرعد: ٢] الخ.
وهذه الجملة استئناف ابتدائي. فلما قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانية الله تعالى بالخلق والتدبير وعلى عظيم قدرته التي أودع بها في المخلوقات دقائق". (٢)

(١) التحرير والتنوير ١٢/١٣٠
(٢) التحرير والتنوير ١٢/١٤٩

٢٣-"وفي قوله: ﴿بدلوا نعمت الله كفرا﴾ محسن **الاحتباك**. وتقدير الكلام: بدلوا نعمة الله وشكرها كفرا بها ونقمة منه، كما دل عليه قوله: ﴿وأحلوا قومهم دار البوار﴾ الخ.

واستعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقه شيء آخر، لأنه يشبه تبديل الذات بالذات.

والذين بدلوا هذا التبديل فريق معروفون، بقرينة قوله: ﴿ألم تر إلى الذين﴾ ، وهم الذين تلقوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، أي كلمة الشرك، وهم الذين استكبروا من مشركي أهل مكة فكابروا دعوة الإسلام وكذبوا النبيء صلى الله عليه وسلم، وشردوا من استطاعوا، وتسببوا في إحلال قومهم دار البوار، فإسناد فعل ﴿أحلوا﴾ إليهم على طريقة المجاز العقلي.

ونعمة الله التي بدلوها هي نعمة أن بوأهم حرمه، وأمنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة. ثم أنعم الله عليهم بان بعث فيهم أفضل أنبيائه صلى الله عليه وسلم وهداهم إلى الحق، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدلوا شكر ذلك بالكفر به، فنعمة الله الكبرى هي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوة إبراهيم وبنيته - عليهم السلام -.

وقومهم: هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتى ماتوا كفارا، فهم أحق بأن يضافوا إليهم.

والبوار: الهلاك والخسران. وداره: محله الذي وقع فيه.

والإحلال بها: الإنزال فيها. والمراد بالإحلال التسبب فيه، أي كانوا سببا لحلول قومهم بدار البوار. وهي جهنم في الآخرة. ومواقع القتل والخزي في الدنيا مثل: موقع بدر. فيجوز أن يكون ﴿دار البوار﴾ جهنم، وبه فسر علي وابن عباس وكثير من العلماء، ويجوز أن تكون أرض بدر وهو رواية عن علي وعن ابن عباس.

واستعمال صيغة المضي في ﴿أحلوا﴾ لقصد التحقيق لأن الإحلال متأخر زمنه فإن السورة مكية.

والمراد بـ ﴿الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار﴾ صناديد المشركين من قريش، فعلى تفسير ﴿دار البوار﴾ بدار البوار في الآخرة يكون قوله: ﴿جهنم﴾ بدلا من ﴿دار البوار﴾ وجملة ﴿يصلونها﴾ حالا من ﴿جهنم﴾ ، فتخص ﴿دار البوار﴾ بأعظم أفرادها وهو النار، ويجعل ذلك من ذكر بعض الأفراد لأهميته.". (١)

٢٤-"تعالى: ﴿وعمروها أكثر مما عمروها﴾ [الروم:٩].

والمعنى: فالشيطان ولي المشركين اليوم، أي متولي أمرهم كما كان ولي الأمم من قبلهم إذ زين لهم أعمالهم، أي لا ولي لهم اليوم غيره ردا على زعمهم أن لهم الحسنى. ويكون في الكلام شبه **الاحتباك**. والتقدير: لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فكان وليهم حينئذ، وهو ولي المشركين اليوم يزين لهم أعمالهم كما كان ولي من قبلهم.

وقوله ﴿اليوم﴾ مستعمل في زمان معهود بعهد الحضور، أي فهو وليهم الآن. وهو كناية عن استمرار ولايته لهم إلى زمن المتكلم مطلقا بدون قصد، لما يدل عليه لفظه من الوقت الذي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وهو منصوب على الظرفية للزمان الحاضر. وأصله: اليوم الحاضر، وهو اليوم الذي أنت فيه. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿اليوم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٣/١٢

يئس الذين كفروا من دينكم﴾ في سورة العقود [٣].
ولا يستعمل في يوم مضى معرفا باللام إلا بعد اسم الإشارة، نحو: ذلك اليوم، أو مثل: يومئذ.
[٦٤] ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾
عطف على جملة القسم. والمناسبة أن القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم.
فلما ذكرت ضلالاتهم وشبهاتهم عقب ذلك ببيان الحكمة في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن إليه، فالقرآن جاء مبينا للمشركين ضلالهم بيانا لا يترك للباطل مسلكا إلى النفوس، ومفصحا عن الهدى إفصاحا لا يترك للحيرة مجالا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة.
وعبر عن الضلال بطريقة الموصولية ﴿الذي اختلفوا فيه﴾ للإيماء إلى أن سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم، فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.". (١)

٢٥-"على ذلك الخلوص كاملا لا تكلف فيه ولا تكاسل، فلذلك ذيله بأنه المطلع على النفوس والنوايا، فوعد الولد بالمغفرة له إن هو أدى ما أمره الله به لوالديه وافيا كاملا. وهو مما يشمله الصلاح في قوله: ﴿إن تكونوا صالحين﴾ أي ممتثلين لما أمرتم به. وغير أسلوب الضمير فعاد إلى ضمير جمع المخاطبين لأن هذا يشترك فيه الناس كلهم فضمير الجمع أنسب به.
ولما شمل الصلاح الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالتقصير ذيله بوصف الأوابين المفيد بعمومه معنى الرجوع إلى الله، أي الرجوع إلى أمره وما يرضيه، ففهم من الكلام معنى **احتباك** بطريق المقابلة. والتقدير: إن تكونوا صالحين أوابين إلى الله فإنه كان للصالحين محسنا وللأوابين غفورا. وهذا يعم المخاطبين وغيرهم، وبهذا العموم كان تذييلا.
وهذا الأوب يكون مطردا، ويكون معرضا للتقصير والتفريط، فيقتضي طلب الإقلاع عما يخرمه بالجوع إلى الحالة المرضية، وكل ذلك أوب وصاحبه آيب، فصيغ له مثال المبالغة (أواب) لصلوحه الميالغة لقوة كيفية الوصف وقوة كميته. فالملازم للأمثال في سائر الأحوال المراقب لنفسه أواب لشدة محافظته على الأوبة إلى الله، والمغلوب بالتفريط يؤوب كلما راجع نفسه وذكر ربه، فهو أواب لكثرة رجوعه إلى أمر ربه، وكل من الصالحين.
وفي قوله: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ ما يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة. وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه.
وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيرا بعد تعسير مشوبا بتضييق وتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيبا.
[٢٧.٢٦] ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان

---
(١) التحرير والتنوير ١٥٧/١٣

لربه كفورا﴾

﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾

القرابة كلها متشعبة عن الأبوة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة.". (١)

٢٦-"و ﴿مدا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي فليمدد له المد الشديد، فسينتهي ذلك.

و ﴿حتى﴾ لغاية المد، وهي ابتدائية، أي يمد له الرحمان إلى أن يروا ما يوعدون، أي لا محيص لهم عن رؤية ما أوعدوا من العذاب ولا يدفعه عنه طول مدتهم في النعمة. فتكون الغاية مضمون الجملة التي بعدها ﴿حتى﴾ لا لفظا مفردا. والتقدير: يمد لهم الرحمان حتى يروا العذاب فيعلموا من هو أسعد ومن هو أشقى.

وحرف الاستقبال لتوكيد حصول العلم لهم حينئذ وليس للدلالة على الاستقبال لأن الاستقبال استفيد من الغاية.

و ﴿إما﴾ حرف تفصيل لـ ﴿ما يوعدون﴾ ، أي ما أوعدوا من العذاب إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة، فإن كل واحد منهم لا يعدو أن يرى أحد العذابين أو كليهما.

وانتصب لفظ ﴿العذاب﴾ على المفعولية لـ ﴿يروا﴾ . وحرف ﴿إما﴾ غير عاطف، وهو معترض بين العامل ومعموله، كما في قول تأبط شرا:

هما خطتا إما إسار ومنة ... وإما دم والموت بالحر أجدر

بجر إسار، ومنة، ودم.

وقوله: ﴿شر مكانا وأضعف جندا﴾ مقابل قولهم: ﴿خير مقاما وأحسن نديا﴾ فالمكان يرادف المقام، والجند الأعوان، لأن الندي أريد به أهله كما تقدم، فقوبل ﴿خير مقاما﴾ [ب ﴿أضعف جندا﴾ .

وجملة ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ معطوفة على جملة ﴿من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا﴾ لما تضمنه ذلك من الإمهال المفضي إلى الاستمرار في الضلال، والاستمرار: الزيادة. فالمعنى على **الاحتباك**، أي فليمدد له الرحمان مدا فيزدد ضلالا، ويمد للذين اهتدوا فيزدادوا هدى.

وجملة ﴿والباقيات الصالحات خير﴾ عطف على جملة ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ . وهو ارتقاء من بشارتهم بالنجاة إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي الباقيات الصالحات خير من السلامة من العذاب التي اقتضاها قوله تعالى ﴿فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا﴾ ، أي فسيظهر أن ما كان فيه الكفرة من النعمة والعزة هو أقل مما كان عليه المسلمون من الشظف والضعف باعتبار المآلين. إذ كان مآل الكفرة العذاب ومآل". (٢)

٢٧-"و ﴿إذ رأيتهم﴾ متعلق ب ﴿منعك﴾ . و"أن" مصدرية، و"لا" حرف نفي، وهي مؤذنة بفعل محذوف يناسب معنى النفي. والمصدر الذي تقتضيه "أن" هو مفعول الفعل المحذوف. وأما مفعول ﴿منعك﴾ فمحذوف يدل عليه ﴿منعك﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٦١/١٤

(٢) التحرير والتنوير ٧٥/١٦

ويدل عليه المذكور.

والتقدير: ما منعك أن تتبعني واضطرك إلى أن لا تتبعني، فيكون في الكلام شبه **احتباك**. والمقصود تأكيد وتشديد التوبيخ بإنكار أن يكون لهارون مانع حينئذ من اللحاق بموسى ومقتض لعدم اللحاق بموسى، كما يقال: وجد السبب وانتفى المانع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ [لأعراف:١٢] في سورة الأعراف فارجع إليه.

والاستفهام في قوله: ﴿أفعصيت أمري﴾ مفرع على الإنكار. فهو إنكار ثان على مخالفة أمره، مشوب بتقرير للتهديد.

وقوله في الجواب ﴿يا ابن أم﴾ نداء لقصد الترقيق والاستشفاع. وهو مؤذن بأن موسى حين وبخه أخذ بشعر لحية هارون. ويشعر بأنه يجذبه إليه ليلطمه، وقد صرح به في الأعراف بقوله تعالى: ﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿يا ابن أم﴾ بفتح الميم. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وخلف بكسر الميم وأصله: يا ابن أمي، فحذفت ياء المتكلم تخفيفا، وهو حذف مخصوص بالنداء. والقراءتان وجهان في حذف ياء المتكلم المضاف إليها لفظ أم ولفظ "عم" في النداء.

وعطف الرأس على اللحية لأن أخذه من لحيته أشد ألما وأنكى في الإذلال.

وابن الأم: الأخ. وعدل عن "يا أخي" إلى "ابن أم" لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة، وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبان واحد.

واللحية بكسر اللام ويجوز، فتح اللام في لغة الحجاز: اسم للشعر النابت بالوجه على موضع اللحيين والذقن، وقد أجمع القراء على كسر اللام من ﴿لحيتي﴾ .

واعتذر هارون عن بقائه بين القوم بقوله: ﴿إني خشيت أن تقول فرقت﴾ ، أي أن تظن ذلك بي فتقوله لوما وتحميلا لتبعة الفرقة التي ظن أنها واقعة لا محالة إذا أظهر هارون غضبه عليهم لأنه يستتبعه طائفة من الثابتين على الإيمان ويخالفهم الجمهور فيقع انشقاق". (١)

٢٨-"باختلاف موصوفه، فوصف به هنا ﴿معيشة﴾ وهي مؤنث. والضنك: الضيق، يقال: مكان ضنك، أي ضيق. ويستعمل مجازا في عسر الأمور في الحياة، قال عنترة:

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا ... أشدد وإن نزلوا بضنك أنزل

أي بمنزل ضنك، أي فيه عسر على نازله. وهو هنا بمعنى عسر الحال من اضطراب البال وتبلبله. والمعنى: أن مجامع همه ومطامح نظره تكون إلى التحيل في إيجاد الأسباب والوسائل لمطالبه، فهو متهالك على الازدياد خائف على الانتقاص غير ملتفت إلى الكمالات ولا مأنوس بما يسعى إليه من الفضائل، يجعله الله في تلك الحالة وهو لا يشعر، وبعضهم يبدو للناس في حالة حسنة ورفاهية عيش ولكن نفسه غير مطمئنة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٧١

وجعل الله عقابه يوم الحشر أن يكون أعمى تمثيلا لحالته الحسية يومئذ بحالته المعنوية في الدنيا، وهي حالة عدم النظر في وسائل الهدى والنجاة. وذلك المعنى عنوان على غضب الله عليه وإقصائه عن رحمته؛ فـ ﴿أعمى﴾ الأول مجاز و ﴿أعمى﴾ الثاني حقيقة.

وجملة ﴿قال رب لم حشرتني أعمى﴾ مستأنفة استئنافا ابتدائيا.

وجملة ﴿قال كذلك أتتك﴾ الخ. واقعة في طريق المحاورة فلذلك فصلت ولم تعطف.

وفي هذه الآية دليل على أن الله أبلغ الإنسان من يوم نشأته التحذير من الضلال والشرك، فكان ذلك مستقرا في الفطرة حتى قال كثير من علماء الإسلام: بأن الإشراك بالله من الأمم التي يكون في الفتر بين الشرائع مستحق صاحبه العقاب، وقال جماعة من أهل السنة والمعتزلة قاطبة: أن معرفة الله واجبةبالعقل١ . ولا شك أن المقصود من ذكرها في القرآن تنبيه المخاطبين بالقرآن إلى الحذر من الإعراض عن ذكر الله، وإنذار لهم بعاقبة مثل حالهم.

والإشارة في ﴿كذلك أتتك آياتنا﴾ راجعة إلى العمى المضمن في قوله: ﴿لم حشرتني أعمى﴾ ، أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها كنت نسيت آياتنا حين أتتك، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تدعى إليه فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاء وفاقا.

وقد ظهر من نظم الآية أن فيها ثلاثة **احتباكات**، وأن تقدير الأول: ونحشره يوم القيامة أعمى وننساه، أي تقصيه من رحمتنا. وتقدير الثاني والثالث: قال كذلك أتتك آياتنا

_

١ في المطبوع "بالفعل".". (١)

٢٩-"والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى: ﴿من نشاء﴾ **احتباك**، والتقدير: فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة.

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان، ولذلك لم يقل: وأهلكنا المسرفين، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد.

والمسرفون: المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب.

[١٠] ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾

استئناف جواب عن قولهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ بإيقاظهم إلى أن الآية التي جاءتهم هي أعظم من الآيات التي أرسل بها الأولون، وتجهيلا لألبابهم التي لم تدرك عظم الآية التي جاءتهم كما أنبأ بذلك موقع هذه الجملة في هذا المكان. وفي ضمير ذلك تحقيق لكون القرآن حقا، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها فيما حكي عنهم أول السورة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٠/١٦

بقوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾ كما أنبأ بذلك ظاهر معنى الآية. ولقصد هذا الإيقاظ صدرت الجملة بما يفيد التحقيق من لام القسم وحرف التحقيق وجعل إنزال الكتاب إليهم كما اقتضته تعدية فعل ﴿أنزلنا﴾ بحرف "إلى" شأن تعدية فعل الإنزال أن يكون المجرور بـ"إلى" هو المنزل إليه فجعل الإنزال إليهم لكونهم بمنزلة من أنزل إليه نظرا إلى أن الإنزال كان لأجلهم ودعوتهم. وذلك أبلغ من أن يقال: لقد أنزلنا لكم.

وتنكير ﴿كتابا﴾ للتعظيم إيماء إلى أنه جمع خصلتين عظيمتين: كونه كتاب هدى، وكونه آية ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو مدانيه.

والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله: ﴿ذكر رحمت ربك عبده زكريا﴾ . وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرفا". (١)

٣٠-"لجمانة البحري جاء بها ... عواصها من لجة البحر

تصف النهار الماء غامره ... ورفيقه بالغيب لا يدري

وقال أبو ذؤيب الهذلي يصف لؤلؤة:

فجاء بها ما شئت من لطمية ... على وجهها ماء الفرات يموج

وقد أشارت إليه آية سورة النحل ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ ، ولما كانت التحلية غير اللباس جيء باسم اللباس بعد ﴿يحلون﴾ بصيغة الاسم دون " يلبسون" لتحصل الدلالة على الثبات والاستمرار كما دلت صيغة ﴿يحلون﴾ على أن التحلية متجددة بأصناف وألوان مختلفة، ومن عموم الصيغتين يفهم تحقق مثلها في الجانب الآخر فيكون في الكلام **احتباك** كأنه قيل: يحلون بها وحليتهم من أساور من ذهب ولباسهم فيها حرير يلبسونه.

والحرير: يطلق على ما نسج من خيوط الحرير كما هنا. وأصل اسم الحرير اسم الخيوط تفرزها من لعابها دودة مخصوصة تلفها لفا بعضها إلى بعض مثل كبة تلتئم مشدودة كصورة الفول السوداني تحيط بالدودة كمثل الجوزة وتمكث فيه الدودة مدة إلى أن تتحول الدودة إلى فراشة ذات جناحين فتثقب ذلك البيت وتخرج منه. وإنما تحصل الخيوط من ذلك البيت بوضعها في ماء حار في درجة الغليان حتى يزول تماسكها بسبب انحلال المادة الصمغية اللعابية التي تشدها فيطلقونها خيطا واحدا طويلا. ومن تلك الخيوط تنسج ثياب تكون بالغة في اللين واللمعان. وثياب الحرير أجود الثياب في الدنيا قديما وحديثا. وأقدم ظهورها في بلاد الصين منذ خمسة آلاف سنة تقريبا حيث يكثر شجر التوت. لأن دود الحرير لا يفرز الحرير إلا إذا كان علفه ورق التوت، والأكثر أنه يبني بيوته في أغصان التوت. وكان غير أهل الصين لا يعرفون تربية دود الحرير فلا يحصلون الحرير إلا من طريق بلاد الفرس يجلبه التجار فلذلك يباع بأثمان غالية. وكانت الأثواب الحريرية تباع بوزنها من الذهب. ثم نقل بزر دود الحرير الذي يولد منه الدود إلى القسطنطينية في زمن الإمبراطور بوستنيانوس بين سنة ٥٢٧ وسنة

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٧

٥٦٥م. ومن أصناف ثياب الحرير السندس والإستبرق وقد تقدما في سورة الكهف. وعرفت الأثواب الحريرية في الرومان في حدود أوائل القرن الثالث المسيحي.

ومعنى ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ أن الله يرشدهم إلى أقوال، أي يلهمهم". (١)

٣١-"وقيل: هيهات ظرف غير متصرف، وهو قول المبرد. ونسبه في لسان العرب إلى أبي علي الفارسي. قال: ابن جني: كان أبو علي يقول في هيهات: أنا أفتي مرة بكونها اسما سمي به الفعل مثل صه ومه، وأفتي مرة بكونها ظرفا على قدر ما يحضرني في الحال.

وفيها لغات كثيرة وأفصحها أنها بهاءين وتاء مفتوحة فتحة بناء، وأن تاءها تثبت في الوقف وقيل بوقف عليها هاء، وأنها لا تنون تنوين تنكير.

وقد ورد ما بعد هيهات مجرورا باللام كما في هذه الآية، وورود مرفوعا كما في قول جرير:

فهيهات هيهات العقيق وأهله ... وهيهات خل بالعقيق نحاوله

وورد مجرورا بمن في قول حميد الأرقط:

هيهات من مصبحها هيهات ... هيهات حجر من صنيبعات

فالذي يتضح في استعمال هيهات أن الأصل فيما بعدها أن يكون مرفوعا على تأويل هيهات بمعنى فعل ماض من البعد كما في بيت جرير، وأن الأفصح أن يكون ما بعدها مجرورا باللام فيكون على الاستغناء عن فاعل اسم الفعل للعلم به مما يسبق هيهات من الكلام لأنها لا تقع غالبا إلا بعد كلام، وتجعل اللام للتبيين، أي إيضاح المراد من الفاعل، فيحصل بذلك إجمال ثم تفصيل يفيد تقوية الخبر. وهذه اللام ترجع إلى لام التعليل. وإذا ورد ما بعدها مجرورا بمن فمن بمعنى عن أي بعد عنه أو بعدا عنه.

على أنه يجوز أن تؤول هيهات مرة بالفعل وهو الغالب ومرة بالمصدر فتكون اسم مصدر مبنيا جامدا غير مشتق. ويكون الإخبار بها كالإخبار بالمصدر، وهو الوجه الذي سلكه الزجاج في تفسير هذه الآية ويشير كلام الزمخشري إلى اختياره.

وجاء هنا فعل ﴿توعدون﴾ من أوعد وجاء قبله فعل ﴿أيعدكم﴾ وهو من وعد مع أن الموعود به شيء واحد. قال الشيخ ابن عرفة: لأن الأول راجع إليهم في حال وجودهم فجعل وعدا، والثاني راجع إلى حالتهم بعد الموت والانعدام فناسب التعبير عنه بالوعيد اه.

وأقول: أحسن من هذا أنه عبر مرة بالوعد ومرة بالوعيد على وجه **الاحتباك**، فإن". (٢)

٣٢-"جعل الليل سكنا. وفيه دلالة على أن لا إحالة ولا استبعاد في البعث بعد الموت، وأنه نظير بعث اليقظة بعد النوم، وفي جليل تلك الآيات ودقيقها عدة آيات فهذا وجه جعل ذلك آيات ولم يجعل آيتين.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٩/١٧

(٢) التحرير والتنوير ٤٥/١٨

ومعنى ﴿لقوم يؤمنون﴾ لناس شأنهم الإيمان والاعتراف بالحجة ولذلك جعل الإيمان صفة جارية على ﴿قوم﴾ لما قلناه غير مرة من أن إناطة الحكم بلفظ ﴿قوم﴾ يومئ إلى أن ذلك الحكم متمكن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم ومنه قوله تعالى ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون﴾ ، أي الفرق من مقومات قوميتهم فكيف يكونون منكم وأنتم لا تفرقون، أي في ذلك آيات لمن من شعارهم التدبر والاتصاف، أي فهؤلاء ليسوا بتلك المثابة.

ولكون الإيمان مقصودا به أنه مرجو منهم جيء فيه بصيغة المضارع إذ ليس المقصود أن في ذلك آيات للذين آمنوا لأن ذلك حاصل بالفحوى والأولوية، فصار المعنى: أن في ذلك لآيات للمؤمنين ولمن يرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة. وقريب من هذا المعنى قوله تعالى ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ [التكوير: ٢٧ – ٢٨]. ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في [سورة يونس: ٦٧] إذ قال ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ لأن آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب، وجعلت دلالتها لكل من يسمع أدلة القرآن فمنهم مهتد وضال ولذلك جيء فيها بفعل ﴿يسمعون﴾ المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى.

وأما هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومهم أنه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف والاعتراف ولذلك أوثر فيه فعل ﴿يؤمنون﴾ .

وجاء ما في الليل من الخصوصية بصيغة التعليل باللام بقوله ﴿ليسكنوا فيه﴾ ، وما في النهار بصيغة مفعول الجعل بقوله ﴿مبصرا﴾ تفننا، ولما يفيده ﴿مبصرا﴾ من المبالغة. والمعنى على التعليل والمفعول واحد في المآل. وبهذا قال في الكشاف "التقابل مراعي من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف" أي ففي الآية **احتباك** إذ المعنى: جعلنا الليل مظلما ليسكنوا فيه والنهار مبصرا لينتشروا فيه.

واعلم أن ما قرر هنا يأتي في آية سورة يونس عدا ما هو من وجوه الفروق البلاغية". (١)

٣٣-"ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق والغائب كالمشاهد . وقد تقدم بيان مزية ضرب الأمثال عند قوله تعالى ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ في [سورة البقرة: ٢٦].

ولهذا أتبعت هذه الجملة بجملة ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ . والعقل هنا بمعنى الفهم، أي لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام. وفي هذا تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبر في دلالتها باتخاذها هزءا وسخرية، فقالت قريش لما سمعوا قوله تعالى ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتا﴾ [العنكبوت: ٤١] قالوا: ما يستحيي محمد أن يمثل بالذباب والعنكبوت والبعوض. وهذا من بهتانهم، وإلا فقد علم

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٥/١٩

البلغاء أن لكل مقام مقالا، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام.

[٤٤] ﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾

بعد أن بين الله تعالى عدم انتفاع المشركين بالحجة ومقدماتها ونتائجها الموصلة إلى بطلان إلهية الأصنام مستوفاة مغنية لمن يريد التأمل والتدبر في صحة مقدماتها بإنصاف نقل الكلام إلى مخاطبة المؤمنين لإفادة التنويه بشأن المؤمنين إذ انتفعوا بما هو أدق من ذلك وهو حالة النظر والفكر في دلالة الكائنات على أن خالقها هو الله، وأن لا شيء غيره حقيقا بمشاركته في إلهيته، فأفاد أن المؤمنين قد اهتدوا إلى العلم ببطلان إلهية الأصنام خلافا للمشركين الذين لم يهتدوا بذلك. فأفهم ذلك أن من لم يعقلوها ليسوا بعالمين أخذا من مفهوم الصفة في قوله ﴿للمؤمنين﴾ إذا اعتبر المعنى الوصفي من قوله ﴿للمؤمنين﴾ ، أو أخذا من الاقتصار على ذكر المؤمنين في قوله ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ إذا اعتبر عنوان المؤمنين لقبا.

والاقتصار عند ذكر دليل الوحدانية على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة المفيد بأن المشركين لم ينتفعوا بذلك يشبه **الاحتباك** بين الآيتين. والباء في ﴿بالحق﴾ للملابسة، أي خلقهما على أحوالهما كلها بما ليس بباطل. والباطل في كل شيء لا وفاء فيه بما جعل هو له. وضد الباطل الحق، فالحق في كل". (١)

٣٤-"والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا وقوله: ﴿اليوم﴾ ظرف متعلق بـ ﴿نختم﴾ .

والقول في لفظ ﴿اليوم﴾ كالقول في نظائره الثلاثة المتقدمة، وهو تنويه بذكره بحصول هذا الحال العجيب فيه، وهو انتقال النطق من موضعه المعتاد إلى الأيدي والأرجل.

وضمائر الغيبة في ﴿أفواههم ، أيديهم ، أرجلهم ، يكسبون﴾ عائدة على الذين خوطبوا بقوله: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ [يس: ٦٣] على طريقة الالتفات. وأصل النظم: اليوم نختم على أفواهكم وتكلمنا أيديكم وتشهد أرجلكم بما كنتم تكسبون. ومواجهتهم بهذا الإعلام تأسيس لهم بأنهم لا ينعهم إنكار ما أطلعوا عليه من صحائف إعمالهم كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقد طوي في هذه الآية ما ورد تفصيله في آي أخر فقد قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٣] وقال ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ [يونس: ٢٨- ٢٩] .

وفي "صحيح مسلم" عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يخاطب العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، فيقول الله: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل" ، وإنما طوي ذكر الداعي إلى خطابهم بهذا الكلام لأنه لم يتعلق به غرض هنا فاقتصر على المقصود.

وقد يخيل تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: ٢٤]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠/١٧٦

ولا تعارض لأن آية يس في أحوال المشركين وآية سورة النور في أحوال المنافقين. والمراد بتكلم الأيدي تكلمها بالشهادة، والمراد بشهادة الأرجل نطقها بالشهادة، ففي كلتا الجملتين **احتباك**. والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد.

ويتعلق: ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بكل من فعلي ﴿تكلمنا، وتشهد﴾ على وجه التنازع. وما يكسبونه: هو الشرك وفروعه. وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وما ألحقوا به من الأذى.". (١)

٣٥-"وجيء بصيغة القصر المفيدة قصر الوحي على الاتصال بالكون ذكرا وقرآنا قصر قلب، أي ليس شعرا كما زعمتم. فحصل بذلك استقصاء الرد عليهم وتأكيد قوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾ . من كون القرآن شعرا.

والذكر: مصدر وصف به الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وصفا للمبالغة، أي إن هو إلا مذكر للناس بما نسوه أو جهلوه. وقد تقدم الكلام على الذكر عند قوله تعالى: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ في سورة الحجر [٦].

والقرآن: مصدر قرأ، أطلق على اسم المفعول، أي الكلام المقروء، وتقدم بيانه عند قوله تعالى: ﴿وما تتلو منه من قرآن﴾ في سورة يونس [٦١].

والمبين: هو الذي أبان المراد بفصاحة وبلاغة.

ويتعلق قوله: ﴿لينذر﴾ بقوله: ﴿علمناه﴾ باعتبار ما اتصل به من نفي كونه شعرا ثم إثبات كونه ذكرا وقرآنا، أي لأن جملة ﴿إن هو إلا ذكر﴾ بيان لما قبلها في قوة أن لو قيل: وما علمناه إلا ذكرا وقرآنا مبينا لينذر أو لتنذر. وجعله ابن عطية متعلقا بـ ﴿مبين﴾ .

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿لينذر﴾ بتاء الخطاب على الالتفات من ضمير الغيبة في قوله: ﴿علمناه﴾ إلى ضمير الخطاب. وقرأه الباقون بياء الغائب، أي النبي الذي علمناه.

والإنذار: الإعلام بأمر يجب التوقي منه.

ولاحي: مستعار لكامل العقل وصائب الإدراك، وهذا تشبيه بليغ، أي من كان مثل الحي في الفهم.

والمقصود منه: التعريض بالمعرضين عن دلائل القرآن بأنهم كالأموات لا انتفاع لهم بعقولهم كقوله تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ [النمل: ٨٠].

وعطف ﴿ويحق القول على الكافرين﴾ على ﴿لينذر﴾ عطف المجاز على الحقيقة لأن اللام النائب عنه واو العطف ليس لام تعليل ولكنه لام عاقبة كاللام في قوله تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ [القصص: ٨]. ففي الواو استعارة تبعية، وهذا قريب من استعمال المشترك في معنييه. وفي هذه العاقبة **احتباك** إذ التقدير: لتنذر من كان". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٦/٢٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٧٠/٢٢

٣٦-"النهار على طريقة المجاز العقلي وإنما المبصرون الناس في النهار، على **احتباك** إذ يفهم من كليهما أن الليل ساكن أيضا، وأن النهار خلق ليبصر الناس فيه إذ المنة بهما سواء، فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي. ولم يعكس فيقل: جعل لكم الليل ساكنا والنهار لتبصروا فيه، لئلا تفوت صراحة المراد من السكون كيلا يتوهم أن سكون الليل هو شدة الظلام فيه كما يقال: ليل ساج، لقلة الأصوات فيه.

وتقدم الكلام على الليل والنهار في سورة البقرة[١٦٤]عند قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ ، وفي مواضع أخرى.

وجملة ﴿إن الله لذو فضل على الناس ﴾ اعتراض هو كالتذليل لجملة ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ لأن الفضل يشمل جعل الليل والنهار وغير ذلك من النعم، ولأن ﴿الناس﴾ يعم المخاطبين بقوله: ﴿جعل لكم﴾ وغيرهم من الناس.

وتنكير ﴿فضل﴾ ؤللتعظيم لأن نعم الله تعالى عظيمة جليلة ولذلك قال: ﴿لذو فضل﴾ ولم يقل: لمتفضل، ولا لمفضل، فعدل إلى إضافة "ذو" إلى ﴿فضل﴾ لتأتي التنكير المشعر بالتعظيم. وعدل عن نحو: له فضل، إلى ﴿لذو فضل﴾ لما يدل عليه "ذو" من شرف ما يضاف هو إليه.

والاستدراك بـ ﴿لكن﴾ ناشئ عن لازم ﴿ذو فضل على الناس﴾ لأن الشأن أن يشكر الناس ربهم على فضله فكان أكثرهم كافرا بنعمه، وأي كفر للنعمة أعظم من أن يتركوا عبادة خالقهم المتفضل عليهم ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا.

وخرج بـ ﴿أكثر الناس﴾ الأقل وهم المؤمنون فإنهم أقل ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ [المائدة: ١٠٠].

والعدول عن ضمير "الناس" في قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ إلى الاسم الظاهر ليتكرر لفظ الناس عند ذكر عدم الشكر كما ذكر عند التفضل عليهم فيسجل عليهم الكفران بوجه أصرح.

وقد علمت مما تقدم وجه اختلاف المنفيات في قوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [غافر: ٥٧] وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ [غافر: ٥٩]وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ ، فقد أتبع كل غرض أريد إثباته بما يناسب حال منكريه.

[٦٢] ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون﴾

اتصل الكلام على دلائل التفرد بالإلهية من قوله: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء﴾". (١)

٣٧-"﴿لا﴾ النافية تأكيد لأختها السابقة. وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مؤذن **باحتباك** في الكلام، تقديره: وما تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة. فالمراد بالأول نفي أن تلتحق فضائل الحسنة مساوي السيئة، والمراد الثاني نفي أن تلتحق السيئة بشرف الحسنة. وذلك هو الاستواء في الخصائص، وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين: جنس الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة فيه ولا مجاز، وقد تقدم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٤

الكلام على نظيره في سورة فاطر.
وفي التعبير بالحسنة والسيئة دون المحسن والمسيء إشارة إلى أن كل فريق من هذين قد بلغ الغاية في جنس وصفه من إحسان وإساءة على طريقة الوصف بالمصدر، وليتأتى الانتقال إلى موعظة تهذيب الخلاق في قوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ، فيشبه أن يكون إيثار نفي المساواة بين الحسنة والسيئة توطئة للانتقال إلى قوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ،. وقوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ،. يجري موقعه على الوجهين المتقدمين في عطف جملة ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ .
فالجملة على الوجه الأول من وجهي موقع جملة ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ تخلص من غرض تفضيل الحسنة على السيئة إلى الأمر بخلق الدفع بالتي هي أحسن لمناسبة أن ذلك الدفع من آثار تفضيل الحسنة على السيئة إرشاد من الله لرسوله وأمته بالتخلق بخلق الدفع بالحسنى. وهي على الوجه الثاني من وجهي موقع جملة ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ واقعة موقع النتيجة من الدليل والمقصد من المقدمة، فمضمونها ناشئ عن مضمون التي قبلها.
وكلا الاعتبارين في الجملة الأولى مقتض أن تكون جملة ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ،. مفصولة غير معطوفة.
وإنما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لأن منتهى الكمال البشري خلقه كما قال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وقالت عائشة لما سئلت عن خلقه "كان خلقه القرآن" لأنه أفضل الحكماء. والإحسان كما ذاتي ولكنه قد يكون تركه محمودا في الحدود ونحوها فذلك معنى خاص. والكمال مطلوب لذاته فلا يعدل عنه ما استطاع ما لم يخش فوات كمال أعظم، ولذلك قالت عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله فيغضب". (١)

٣٨-"تفريع على الوعيد في قوله ﴿لا يخفون علينا﴾ لبيان أن الوعيد بنار جهنم تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى النار، وبالمؤمنين بأنهم آمنون من ذلك. والاستفهام تفريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين.
وكني بقوله ﴿يأتي آمنا﴾ أن ذلك الفريق مصيره الجنة إذ لا غاية للآمن إلا أنه في نعيم. وهذه كناية تعريضية بالذين يلحدون في آيات الله.
وفي الآية محسن **الاحتباك**، إذ حذف مقابل "من يلقى في النار" وهو: من يدخل الجنة، وحذف مقابل ﴿أمن يأتي آمنا﴾ وهو: من يأتي خائفا، وهم أهل النار.
﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾
الجملة تذييل لجملة ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ الخ، كما دل عليه قوله عقبه ﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ [فصلت: ٤١] الآية، أي لا يخفى علينا إلحادهم ولا غيره من سيئ أعمالهم. وإنما خص الإلحاد بالذكر ابتداء لأنه أشنع أعمالهم ومصدر أسوئها.
والأمر في قوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ مستعمل في التهديد، أو في الإغراء المكنى به عن التهدي.
وجملة: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ وعيد بالعقاب على أعمالهم على وجه الكناية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/٥٧

وتوكيده ب"إن" لتحقيق معنييه الكنائي والصريح، وهو تحقيق إحاطة علم الله بأعمالهم لأنهم كانوا شاكين في ذلك كما تقدم في قصة الثلاثة الذين نزل فيهم قوله تعالى ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم﴾ [فصلت: ٢٢] الآية.
ولبصير: العليم بالمبصرات.
﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾
أعقب تهديدهم على الإلحاد في آيات الله على وجه العموم بالتعرض إلى إلحادهم في آيات القرآن وهو من ذكر الخاص بعد العام للتنويه بخصال القرآن وأنه ليس بعرضة لأن يكفر به بل هو جدير بأن يتقبل بالاقتداء والاهتداء بهديه، فلهذه الجملة اتصال في المعنى". (١)

٣٩-"إلى التمييز بين المصيب والمخطئ، ومراتب الخطأ في ذلك، على أنه لا يناسب سياق الآيات سابقها وتاليها ولا لأغراض السور المكية. وقد احتج بهذه الآية نفاة القياس، وهو احتجاج لا يرتضيه نطاس.
﴿ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾
يجوز أن تكون الجملة مقول قول محذوف يدل عليه قوله ﴿لتنذر أم القرى﴾ [الشورى: ٧] الآية، فتكون كلاما مستأنفا لأن الإنذار يقتضي كلاما منذرا به، ويجوز أن تكون متصلة بجملة ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ تكملة للكلام الموجه من الله ويكون في قوله ﴿ربي﴾ التفاتا من الخطاب إلى التكلم، والتقدير: ذلكم الله ربكم، وتكون جملتا ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ معترضتين.
والإشارة لتمييز المشار إليه وهو المفهوم من ﴿فحكمه إلى الله﴾ وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على المشركين إذ سموا الأصنام آلهة وأربابا وأوثر اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسمو وشرف القدر، أي ذلكم الله العظيم. ويتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه، فالمعنى: الله العظيم في حكمه هو ربي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم.
والتوكل: تفعل من الوكل، وهو التفويض في العمل، وتقدم عند قوله تعالى، ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ في سورة آل عمران [١٥٩]
والإنابة: الرجوع، والمراد بها هنا الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأن الرجوع إلى الشيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره، وتقدمت الإنابة عند قوله تعالى ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ [هود:٧٥]
وجيء في فعل ﴿توكلت﴾ بصيغة الماضي وفي فعل ﴿أنيب﴾ بصيغة المضارع للإشارة إلى أن توكله على الله كان سابقا من قبل أن يظهر له تنكر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبدا متوكلا على ربه، وإذا كان توكله قد سبق تنكر قومه فاستمراره بعد ان كشروا له عن أنياب العدوان محقق.
وأما فعل ﴿أنيب﴾ فجيء فيه بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدد الإنابة وطلب المغفرة. ويعلم تحققها في الماضي بمقارنتها

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٢٥

لجملة ﴿عليه توكلت﴾ لأن المتوكل منيب، ويجوز أن يكون ذلك من **الاحتباك**. والتقدير: عليه توكلت وأتوكل وإليه أنبت وأنيب.". (١)

٤٠-"ويجوز أن يكون وصفا ل ﴿رجز﴾ فيكون مجرورا كما قرأه ابن كثير وحفص عن عاصم.
[١٢] ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ استئناف ابتدائي للانتقال من التذكير بما خلق الله من العوالم وتصاريف أحوالها من حيث إنها دلالات على الوحدانية، إلى التذكير بما سخر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع الناس تقتضي أن يشكروا مقدرها فجحدوا بها إذ توجهوا بالعبادة إلى غير المنعم عليهم، ولذلك علق بفعلي ﴿سخر﴾ في الموضعين مجرور بلام العلة بقوله ﴿لكم﴾ ؛ على أن هذه التصاريف آيات أيضا مثل اختلاف الليل والنهار، وما انزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ولكن لوحظ هنا ما فيها من النعم كما لوحظ هنالك ما فيها من الدلالة، والفطن يستخلص من المقامين كلا الأمرين على ما يشبه **الاحتباك**. ومناسبة هذا الانتقال واضحة.
واسم الجلالة مسند إليه والموصول مسند، وتعريف الجزأين مفيد الحصر وهو قصر قلب بتنزيل المشركين منزلة من يحسب أن تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض إنعام من شركائهم كقوله تعالى ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ [الروم: ٤٠] فكان هذا القصر إبطالا لهذا الزعم الذي اقتضاه هذا التنزيل.
وقوله ﴿لتجري الفلك فيه﴾ بدل اشتمال من ﴿لكم﴾ لأن في قوله ﴿لكم﴾ إجمالا أريد تفصيله.
فتعريف ﴿الفلك﴾ تعريف الجنس، وليس جري الفلك في البحر بنعمة على الناس إلا باعتبار أنهما يجرونهما للسفر في البحر فلا حاجة إلى جعل الألف واللام عوضا عن المضاف إليه من باب ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات:٤١].
وعطف عليه ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال، فحصل من مجموع ذلك أن تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات حتى التنزه وزيارة الأهل.
وعطف ﴿ولعلكم تشكرون﴾ على قوله ﴿لتجري الفلك فيه﴾ لا باعتبار ما اشتمل عليه إجمالا، بل باعتبار لفظه في التعليق بفعله. وهذا مناط سوق هذا الكلام، أي لعلكم تشكرون فكفرتم، وتقدم نظير مفردات هذه الآية غير مرة ما أغنى عن أعادته.". (٢)

٤١-"و ﴿بشرى﴾ عطف على ﴿مصدق﴾ ، والتقدير: وهو بشرى للمحسنين، أي الكتاب، وهذا النظم يجعل الجملة بمنزلة الاحتراس والتتميم.
وقرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير ويعقوب ﴿لتنذر﴾ بالمثناة الفوقية خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم فيحصل وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه منذر ووصف كتابه بأنه ﴿بشرى﴾ وفيه **احتباك**. وقرأه الجمهور بالمثناة التحتية

(١) التحرير والتنوير ١١٢/٢٥
(٢) التحرير والتنوير ٣٥٦/٢٥

على أنه خبر عن الكتاب فإسناد الإنذار إلى كتاب مجاز عقلي.

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ [الاحقاف:١٤]

استئناف بياني أوثر بصريحه جانب المؤمنين من المستمعين للقرآن لأنهم لما سمعوا البشرى تطلعوا إلى صفة البشرى وتعيين المحسنين ليضعوا أنفسهم في حق مواضعها، فأجيبوا بأن البشرى هي نفي الخوف والحزن عنهم، وأنهم أصحاب الجنة وأن المحسنين هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا في أعمالهم. وأشير بمفهومه إلى التعريض بالذين ظلموا فإن فيه مفهوم القصر من قوله ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾

وتعريفهم بطريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من تعليل كرامتهم عند الله لأنهم جمعوا حسن معاملتهم لربهم بتوحيده وخوفه وعبادته، وهو ما دل عليه ﴿قالوا ربنا الله﴾ إلى حسن معاملتهم أنفسهم وهو معنى ﴿ثم استقاموا﴾

وجيء في صلة الموصول بفعل ﴿قالوا﴾ لإيجاز المقول وغنيته عن أن يقال: اعترفوا بالله وحده وأطاعوه. والمراد: أنهم قالوا ذلك واعتقدوا معناه إذ الشأن في الكلام الصدق وعملوا به لأن الشأن مطابقة العمل للاعتقاد.

﴿ثم﴾ للتراخي الرتبي: وهو الارتقاء والتدرج، فإن مراعاة الاستقامة أشق من حصول الإيمان لاحتياجها إلى تكرر مراقبة النفس، فأما الإيمان فالنظر يقتضيه واعتقاده يحصل دفعة لا يحتاج إلى تجديد ملاحظة. فهذا وجه التراخي الرتبي من جهة، وإن كان الإيمان أرقى درجة من العمل من حيث إنه شرط في الاعتداد بالعمل ولذلك عطف ب ﴿ثم﴾ التي للتراخي في قوله تعالى ﴿وما أدراك ما العقبة فك رقبة﴾ إلى قوله ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد: ١٢,١٧]، فالاعتباران مختلفان باختلاف المقام المسوق فيه الكلام كما يظهر بالتأمل هنا وهناك، وتقدم نظيره في سورة فصلت.". [١]

٤٢-"فريقي الإيمان والكفر، ومما أعد لكليهما، ومن إعلان تباين حاليهما ثني العنان إلى بيان ما في الحنة التي وعد المتقون، وخص من ذلك بيان أنواع الأنهار، ولما كان ذلك موقع الجملة كان قوله ﴿مثل الجنة﴾ مبتدأ محذوف الخبر. والتقدير: ما سيوصف أو ما سيتلى عليكم، أو مما يتلى عليكم.

وقوله ﴿كمن هو خالد في النار﴾ كلام مستأنف مقدر فيه استفهام إنكاري دل عليه ما سبق من قوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾ [محمد: من الآية١٤]. والتقدير: أكمن هو خالد في النار. والإنكار متسلط على التشبيه الذي هو بمعنى التسوية.

ويجوز أن تكون جملة ﴿مثل الجنة﴾ بدلا من جملة ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ فهي داخلة في حيز الاستفهام الإنكاري. والخبر قوله ﴿كمن هو خالد في النار﴾ ، أي كحال من هو خالد في النار وذلك يستلزم اختلاف حال النار عن حال الجنة، فحصل نحو **الاحتباك** إذ دل ﴿مثل الجنة﴾ على مثل أصحابها ودل مثل من هو خالد في النار على مثل النار.

والمقصود: بيان البون بين حالي المسلمين والمشركين بذكر التفاوت بين حالي مصيرهما المقرر في قوله ﴿إن الله يدخل الذين

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٢٣

آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾ إلى آخره، ولذلك لم يترك ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار في خلال ذكر الجنة والنار فقال ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ وقال بعده ﴿كمن هو خالد في النار﴾ ولقصد زيادة تصوير مكابرة من يسوي بين المتمسك ببينة ربه وبين التابع لهواه، أي هو أيضا كالذي يسوي بين الجنة ذات تلك الصفات وبين النار ذات صفات ضدها.

وفيه اطراد أساليب السورة إذ افتتحت بالمقابلة بين الذين كفروا والذين آمنوا، وأعقب باتباع الكافرين الباطل واتباع المؤمنين الحق، وثلث بقوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ إلخ.

والمثل: الحال العجيب.

وجملة ﴿فيها أنهار﴾ وما عطف عليها تفصيل للإجمال الذي في جملة ﴿مثل الجنة﴾ فهو استئناف، أو بدل مفصل من مجمل على رأي من يثبته في أنواع البدل.

والأنهار: جمع نهر، وهو الماء المستبحر الجاري في أخدود عظيم من الأرض، وتقدم في قوله تعالى ﴿قال إن الله مبتليكم بنهر﴾ في سورة البقرة. [٢٤٩]

فأما إطلاق الأنهار على أنهار الماء فهو حقيقة، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من". (١)

٤٣-"يجوز أن يكون تذييلا للإخبار بانشقاق القمر فيكون المراد ب ﴿آية﴾ في قوله ﴿وإن يروا آية﴾ القمر. فقد جاء في بعض الآثار: أن المشركين لما رأوا انشقاق القمر قالوا: هذا سحر محمد بن أبي كبشة وفي رواية قالوا: قد سحر محمد القمر، ويجوز أن يكون كلاما مستأنفا من ذكر أحوال تكذيبهم ومكابرتهم وعلى كلا الوجهين فإن وقوع آية، وهو نكرة في سياق الشرط يفيد العموم.

وجيء بهذا الخبر في صورة الشرط للدلالة على أن هذا ديدنهم ودأبهم.

وضمير ﴿يروا﴾ عائد إلى ضمير غير مذكور في الكلام دال عليه المقام وهو المشركون، كما جاء في مواضع كثيرة من القرآن، مع أن قصة انشقاق القمر وطعنهم فيها مشهور يومئذ معروفة أصحابه، فهم مستمرون عليه كلما رأوا آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

ووصف ﴿مستمر﴾ يجوز أن يكون مشتقا من فعل مر الذي هو مجاز في الزوال والسين والتاء للتقوية في الفعل، أي لا يبقى القمر منشقا. ويجوز أن يكون مشتقا من المرة بكسر الميم، أي القوة، والسين والتاء للطلب، أي طلب لفعله مرة، أي قوة، أي تمكننا. والمعنى: هذا سحر معروف متكرر، أي معهودا منه مثله.

[٣] ﴿واتبعوا أهواءهم و وكل أمر مستقر﴾ .

﴿واتبعوا أهواءهم﴾ .

وهذا إخبار عن حالهم فيما مضى بعد أن أخبر عن حالهم في المستقبل بالشرط الذي في قوله ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٨٠/٢٦

[القمر:٢]. ومقابلة ذلك بهذا فيه شبه **احتباك** كأنه قيل: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر، وقد رأوا الآيات وأعرضوا وقالوا: سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وسيكذبون ويتبعون أهواءهم.

وعطف ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ عطف العلة على المعلول لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهدوه واشتهر دوامه.

وجمع الأهواء دون أن يقول واتبعوا الهوى كما قال ﴿إن يتبعون إلاالظن﴾ [الأنعام: ١١٦] حيث إن الهوى اسم جنس يصدق بالواحد والمتعدد، فعدل عن الإفراد إلى الجمع لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه، وللإشارة إلى أن لهم أصنافا متعددة من الهواء: من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حب اتباع ملة آبائهم، ومن". (١)

٤٤-"وتعليل ذلك بقوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ إعلام بأن الله أراد ظهور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع والخفت في أول أمره واستمر زمانا طويلا حتى تنصر قسطنطين سلطان الروم، فلما أخبر الله بأنه أراد إظهار دين الإسلام على جميع الأديان علم أن أمره لا يزال في ازدياد حتى يتم المراد.

والإظهار: النصر ويطلق على التفضيل والإعلاء المعنوي.

والتعريف في قوله: ﴿على الدين كله﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان وينصر أهله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرضون لأهل الإسلام.

ويظهر أن لفظ ﴿الدين﴾ مستعمل في كلا معنييه: المعنى الحقيقي وهو الشريعة. والمعنى المجازي وهو أهل الدين كما تقول: دخلت قرية كذا وأكرمتني، فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعا وآدابا، وأصلح بجميع الناس لا يخص أمة دون أخرى ولا جيلا دون جيل.

وإظهار أهله على أهل الأديان بنصر أهله على الذين يشاقونهم في مدة ظهوره حتى يتم أمره ويستغني عمن ينصره.

وقد تم وعد الله وظهر هذا الدين وملك أهله أمما كثيرة ثم عرضت عوارض من تفريط المسلمين في إقامة الدين على وجهه فغلبت عليهم أمم، فأما الدين فلم يزل عاليا مشهودا له من علماء الأمم المتصفين بأنه أفضل دين للبشر.

وخص المشركون بالذكر هنا إتماما للذين يكرهون إتمام هذا النور، وظهور هذا الذين على جميع الأديان. ويعلم أن غير المشركين يكرهون ظهور هذا الذين لأنهم أرادوا إطفاء نور الدين لأنهم يكرهون ظهور هذا الدين فحصل في الكلام **احتباك**.

[١٠، ١٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [١١] يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾ . هذا تخلص إلى الغرض الذي افتتحت به السورة من قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إلى قوله: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف:٢، ٤]. فبعد أن ضربت". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦٧/٢٧

(٢) التحرير والتنوير ١٧٢/٢٨

٤٥-"﴿لولا﴾ للعرض أيضا والتوبيخ والتنديم والتمني على المجاز أو الكناية، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ في سورة يونس[٩٨].

وحق الفعل بعدها أن يكون مضارعا وإنما جاء ماضيا هنا لتأكيد إيقاعه في دعاء الداعي حتى كأنه قد تحقق مثل ﴿أتى أمر الله﴾ [النحل: ١] وقرينة ذلك ترتيب فعلي ﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾ عليه.

والمعنى: فيسأل المؤمن ربه سؤالا حثيثا أن يحقق تأخير موته إلى أجل يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح.

ووصف الأجل ب ﴿قريب﴾ تمهيد لتحصيل الاستجابة بناء على متعارف الناس أن الأمر اليسير أرجى لأن يستجيبه المسؤول فيغلب ذلك على شعورهم حين يسألون الله تنساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا، ولذلك ورد في الحديث "لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت وليعزم المسألة فإنه لا مكره له" . تنبيها على هذا التوهم فالقرآن حكى عن الناس ما هو الغالب على أقوالهم.

وانتصب فعل ﴿فأصدق﴾ على إضمار "أن" المصدرية إضمارا واجبا في جواب الطلب.

وأما قوله: ﴿وأكن﴾ فقد اختلف فيه القراء.

فأما الجمهور فقرأوه مجزوما بسكون آخره على اعتباره جوابا للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفردا على مفرد. وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسبب فيغني الجزم عن فعل شرط. فتقديره: إن تؤخرني إلى أجل قريب أكن من الصالحين، جمعا بين التسبب المفاد بالفاء. والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل.

وإذا قد كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الوقع أحدهما بعد فاء السببية والآخر بعد الواو العاطفة عليه. فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين وذلك يرجع إلى محسن **الاحتباك**. فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق وأكون من الصالحين. إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين.

ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حث سؤاله أعقبه بأن الأمر ممكن فقال: إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين. وهو من بدائع". (١)

٤٦-"وقرأ نافع وأبو جعفر "يزلقونك" بفتح المثناة مضارع زلق بفتح اللام يزلق متعديا، إذا نحاه من مكانه.

وقرأه الباقون بضم المثناة.

وجاء ﴿يكاد﴾ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار ذلك في المستقبل وجاء فعل ﴿سمعوا﴾ ماضيا لوقوعه مع ﴿لما﴾ وللإشارة إلى أنه قد حصل منهم ذلك وليس مجرد فرض.

واللام في ﴿ليزلقونك﴾ لام الابتداء التي تدخل كثيرا في خبر ﴿إن﴾ المكسورة وهي أيضا تفرق بين ﴿إن﴾ المخففة وبين "إن" النافية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧/٢٨

وضمير ﴿إنه لمجنون﴾ عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حكاية لكلامهم بينهم، فمعاد الضمير كائن في كلام بعضهم، أو ليس للضمير معاد في كلامهم لأنه منصرف إلى من يتحدثون عنه في غالب مجالسهم.

والمعنى: يقولون ذلك اعتلالا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلا للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، فلذلك أبطل الله قولهم: ﴿إنه لمجنون﴾ بقوله: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ ، أي ما القرآن إلا ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين، وينتقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء.

والذكر: التذكير بالله والجزاء هو أشرف أنواع الكلام لأنه فيه صلاح للناس.

فضمير ﴿هو﴾ عائد إلى مذكور بل إلى معلوم من المقام، وقرينة السياق ترجع كل ضمير من ضميري الغيبة إلى معاده، كقول عباس بن مرداس:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم ... بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا

أي لأحرز الكفار ما جمعه المسلمون.

وفي قوله: ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ مع قوله في أول السورة: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ [القلم:٢] محسن رد العجز على الصدر.

وقوله: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ إبطالا لقولهم: ﴿إنه لمجنون﴾ لأنهم قالوه في سياق تكذيبهم بالقرآن فإذا ثبت أن القرآن ذكر بطل أن يكون مبلغه مجنونا. وهذا من قبيل **الاحتباك** إذ التقدير: ويقولون إنه لمجنون وإن القرآن كلام مجنون، وما القرآن إلا ذكر وما أنت إلا مذكر.". (١)

٤٧-"منهم نفس باقية أو بتأويل فرقة، أي ما ترى فرقة منهم باقية.

ويجوز أن تكون ﴿باقية﴾ مصدرا على وزن فاعلة مثل ما تقدم في الحاقة، أي فما ترى لهم بقاء، أي هلكوا عن بكرة أبيهم.

واللام في قوله: ﴿لهم﴾ يجوز أن تجعل لشبه الملك، أي باقية لأجل النفع.

ويجوز أن يكون اللام بمعنى "من" مثل قولهم: سمعت له صراخا، وقول الأعشى:

نسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت ... كما استعان بريح عشرق زجل

وقول جرير:

ونحن لكم يوم القيامة أفضل

أي ونحن منكم أفضل.

ويجوز أن تكون اللام التي تنوى في الإضافة إذا لم تكن الإضافة على معنى "من". والأصل: فهل ترى باقيتهم، فلما قصد التنصيص على عموم النفي واقتضى ذلك جلب "من" الزائدة لزم تنكير مدخول "من" الزائدة فأعطي حق معنى الإضافة

(١) التحرير والتنوير ١٠١/٢٩

بإظهار اللام التي الشأن أن تنوى كما في قوله تعالى: ﴿بعثنا عليكم عبادا لنا﴾ [الاسراء: ٥] فإن أصله عبادنا.
وموقع المجرور بالام في موقع النعت ل ﴿باقية﴾ قدم عليها فصار حالا.
[٩-١٠] ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ .
عطف على جملة ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ [الحاقة:٤].
وجمع في الذكر هنا أمم تقدمت قبل بعثة موسى عليه السلام إجمالا وتصريحا، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكرا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.
وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد في سياق ذكر التكذيب بالقارعة إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربهم فحصل في الكلام **احتباك."**. (١)

٤٨-"ألف على صيغة الأمر، فتكون الجملة استئنافا. والتقدير: أوحي إلي أنه لما قام عبد الله إلى آخره قل إنما أدعو ربي، فهو من تمام ما أوحي به إليه.
و ﴿إنما أدعو ربي﴾ يفيد قصرا، إلى أدعو غيره، أي لا أعبد غيره دونه.
وعطف عليه ﴿ولا أشرك به أحدا﴾ تأكيدا لمفهوم القصر، وأصله أن لا يعطف فعطفه لمجرد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ.
[٢١-٢٣] ﴿قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا﴾ .
﴿قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا، إلا بلاغا من الله ورسالاته﴾ .
هذا استئناف ابتدائي، وهو انتقال من ذكر ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى توجيه خطاب مستأنف إليه، فبعد أن حكي في هذه السورة ما أوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مما خفي عليه من الشؤون المتعلقة به من اتباع متابعين وإعراض معرضين، انتقل إلى تلقينه ما يرد على الذين أظهروا له العناد والتورك.
ويجوز أن يكون ﴿قل إني لا أملك﴾ الخ، تكريرا لجملة ﴿قل إنما أدعو ربي﴾ [الجن:٢٠] على قراءة حمزة وعاصم وأبي جعفر.
والضر: إشارة إلى ما يتوركون به من طلب إنجاز ما يتوعدهم بن من النصر عليهم.
وقوله: ﴿ولا رشدا﴾ تتميم.
وفي الكلام **احتباك** لأن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ولا ضلالا ولا

(١) التحرير والتنوير ١١١/٢٩

رشدا.

والرشد بفتحتين: مصدر رشد، والرشد، بضم فسكون: الاسم، وهو معرفة الصواب، وقد تقدم قريبا في قوله: ﴿يهدي إلى الرشد﴾ [الجن:٢].

وتركيب لا أملك لكم معناه: لا أقدر قدرة لأجلكم على ضر ولا نفع، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ في سورة الممتحنة [٤]، وتقدم أيضا". (١)

٤٩-"الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حجلة.

وقيل: كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة وإن لم تكن له حجلة، وفي الإتقان عن ابن الجوزي: أن الأريكة السرير بالحبشية فزاده السيوطي على أبيات ابن السبكي وابن حجر في جمع المعرب في القرآن.

وجملة ﴿لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا﴾ حال ثانية من ضمير الغائب في ﴿جزاهم﴾ أو صفة ﴿جنة﴾ .

والمراد بالشمس: حر أشعتها، فنفي رؤية الشمس في قوله: ﴿لا يرون فيها شمسا﴾ فيكون نفي رؤية الشمس كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزمه انتفاء حر شعاعها فهو من الكناية التلويحية كقوله:

ولا ترى الضب فيها ينجحر

أي لا ضب بها فتراه ولا يكون انجحاره.

والزمهرير: اسمك للبرد القوي في لغة الحجاز، والزمهرير: اسم البرد.

والمعنى: أن هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال. وفي كلام الرابعة من نساء حديث أم زرع زوجي كليل تهامة، ولا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة.

وقال ثعلب: الزمهرير اسم القمر في لغة طيء، وأنشد:

وليلة ظلامها قد اعتكر ... قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى على هذا: أنهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس ولا ضوء القمر، أي ضوء النهار وضوء الليل لأن ضياء الجنة من نور واحد خاص بها. وهذا معنى آخر غير نفي الحر والبرد.

ومن الناس من يقول: المراد بالشمس حقيقتها وبالزمهرير البرد وأن في الكلام **احتباكا**، والتقدير: لا يرون فيها شمسا ولا قمرا ولا حرا ولا زمهريرا وجعلوه مثالا **للاحتباك** في المحسنات البديعية، ولعل مراده: أن المعنى أن نورها معتدل وهواءها معتدل.

﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ انتصب ﴿دانية﴾ عطفا على ﴿متكئين﴾ لأن هذا حال سببي من أحوال المتكئين، أي ظلال شجر الجنة قريبة منهم. و ﴿ظلالها﴾ فاعل ﴿دانية﴾ وضمير". (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/٢٩

(٢) التحرير والتنوير ٣٦١/٢٩

٥٠-"﴿بل﴾ إضراب انتقالي. والمناسبة بين الغرضين المنتقل منه والمنتقل إليه مناسبة المقابلة لمضمون ﴿فأكرمه ونعمه﴾ من جهة ما توهموه أن نعمة مالهم وسعة عيشهم تكريم من الله لهم، فنبههم الله على أنهم إن أكرمهم الله فإنهم لم يكرموا عبيده شحا بالنعمة إذ حرموا أهل الحاجة من فضول أموالهم وإذ يستزيدون من المال ما لا يحتاجون إليه وذلك دحض لتفخرهم بالكرم والبذل.

فجملة ﴿لا تكرمون اليتيم﴾ استئناف كما يقتضيه الإضراب، فهو إما استئناف ابتداء كلام، وإما اعتراض بين ﴿كلا﴾ وأختها كما سيأتي وإكرام اليتيم: سد خلته وحسن معاملته لأنه مظنة الحاجة لفقد عائله، ولاستيلائهم على الأموال التي يتركها الآباء لأبنائهم الصغار. وقد كانت الأموال في الجاهلية يتداولها رؤساء العائلات.

والبر لأنه مظنة انكسار الخاطر لشعوره بفقد من يدل هو عليه.

واليتيم: الصبي الذي مات أبوه وتقدم في سورة النساء، وتعريفه للجنس، أي لا تكرمون اليتامى، وكذلك تعريف ﴿المسكين﴾ .

ونفي الحض على طعام المسكين نفي لإطعامه بطريق الأولى، وهي دلالة فحوى الخطاب، أي لقلة الاكتراث بالمساكين لا ينفعونهم ولو نفع وساطة، بله أن ينفعوهم بالبذل من أموالهم.

و ﴿طعام﴾ يجوز أن يكون اسما بمعنى المطعوم، بالتقدير: ولا يحضون على إعطاء طعام المسكين فإضافته إلى المسكين على معنى لام الاستحقاق ويجوز أن يكون اسم مصدر أطعم. والمعنى: ولا تحضون على إطعام الأغنياء المساكين فإضافته إلى المسكين من إضافة المصدر إلى مفعوله.

و ﴿المسكين﴾ : الفقير وتقدم في سورة براءة.

وقد حصل في الآية **احتباك** لأنهم لما نفي إكرامهم اليتيم وقوبل بنفي أن يحضوا على طعام المسكين، علم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم، أي لا يحضون أولياء الأيتام على ذلك، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم.

ويجوز أن يكون الحض على الطعام كناية عن الإطعام لأن من يحض على فعل شيء يكون راغبا في التلبس به فإذا تمكن أن يفعله فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر: ٣] أي عملوا بالحق وصبروا وتواصوا بهما.". (١)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢٩٤